روايات مصرية للجيب

مغامرات س

2

الموت مرة أخرى!

Looloo
www.dvd4arab.com

مـدخـل

مزيج من التهور والجنون وحب المغامرة والبحث عن المتاعب ؛ جملة بسيطة تلخصنى أنا الموقعة أدناه (نسرين الجبالى) ..

صحفية فى جريدة أسبوعية ، أكتب تحقيقات بوليسية عن رجل غامض يظهر أحيانًا ويختفى دائمًا ، ويسمّى نفسه السيد (س) ..

مخطوبة لرائد فى المباحث الجنائية لـه قلب عاشق وروح وملامح طفل ، أورّطه فى قضايا ومشكلاتى دون ذنب جناه إلا أنه خطيبى (هشام القاضى) ..

هناك أيضًا أبى جراح المخ والأعصاب الشهير (فاروق الجبالى) ، الذى ارتبطت به عاطفيًا بشدة بعد أن ماتت أمى وأنا لم أدرك أنها أمى بعد !

وهناك السيدة (ألفت همام) رئيسة تحرير الجريدة التى أعمل بها ، سيدة أنيقة المظهر والجوهر ، تتوسم فىّ دائمًا أننى سأصبح نجمة صحفية فى يوم بعيد ..

ولا يخلو الأمر من بعض الصديقات والزملاء ! (مروة)

المحجبة الهادئة و(رحاب) المشاغبة المرحة خفيفة الدم و(شيماء رويتر) وكالة الأنباء المتنقلة و(تامر فوزى) نجم الكلية المسرحى الأوحد و ...

هل أخبرتكم أننى أدرس فى العام النهائى من كلية الإعلام ؟!

عذرًا لطيران أفكارى الذى لا أدرى له علاجًا، وعمومًا فليست هذه أسوأ خصالى ..

من أيضًا ؟!

هل حدثتكم عن بواب عمارتنا اللورد (خضر) ؟! وعن مربيتى النوبية دادة (رنيفة) رحمها الله ؟! ماذا عن عمى (ممدوح) وابنه (حمادة) ؟! وعن عم (أنيس) الصيدلانى والدكتور (مشهور فراج) وبقية أصدقاء أبى ؟!

إنه عالمى الذى أحياه، بكل تفاصيله التى قد لا تهم أحدًا سواى ؟!

عالمى الذى أحبه برغم كل ما فيه من تناقضات وأشجان وذكريات مؤلمة ..

نعم، اليوم مغامرة أخرى ..

مغامرة أثقل وقائعها إليكم كما وقعت دون تصرف، أقوم فيها بدور الراوى والبطل مع الظهور الشرفى - بين وقت وآخر - للسيد (س) الذى لن يقنعه أحد بالظهور ما لم يقرر هو أن يفعل ..

هل أحدثكم عنه من جديد فأقول إنه لغز لا أجد له حلاً، وإنه ظل يتستر فى ثوب من ظل ؟! وإنه .. وإنه .. إلى آخر ما أصدع به رءوسكم فى كل مرة ؟!

لا أعتقد أن التكرار فى صالح أحد ..

لنبدأ إذن على الفور كما اعتدنا بعد فاصل الثرثرة الطويل هذا ..

اليوم موعدنا مع امرأة ماتت مرتين !!!

كيف ؟!

دعونى أضع ساقًا فوق أخرى، وأعدل من وضع نظارتى الطبية فوق أنفى، متراجعة فى مقعدى الوثير - إن وجدت واحدًا يصلح للجلوس عليه - ودعونى أشرع فى القول :

- إن كل شىء يبدأ كالتالى ...

★ ★ ★

١ـ قليل من الراحة ..

من ذا الذى يستطيع إيقاف عجلة الحياة عن دورانها الأبدى ؟!

تمر الأيام دون أن نشعر ، تتساقط أرقامًا ورقية من على النتيجة المعلقة ، تركض عقارب الساعة كخيول فى البرية ، وتتسارع كخفقات قلب عاشق ..

يهل موسم الامتحانات ، آخر امتحانات لى كطالبة جامعية فى كلية الإعلام ، تختزن ذاكرتى السطور والصفحات ، وتتشابه أيامى وتقل ساعات نومى ويزداد إقبالى على الطعام والمنبهات و(عبد الحليم) ، حتى تحتوينى اللجنة مرتعدة فوق المكتب الخشبى ، أراقب أوراق الأسئلة والإجابات إذ توزّع أمامى حتى يصل بها المراقب إلىّ وأنا أموت ..

وبين الشهقات والإغماءات وضحكات الهستيريا الجماعية أهدأ ، وأمسك بالقلم الرصاص فأسطر الورقة فى ترتيب وأناقة ، وتبدأ المعلومات فى الاحتشاد عند بوابات عقلى قبل أن تنسال فى سلاسة إلى حبر القلم وسطور الورقة البيضاء ..

أخرج من لجنة الامتحان مبتسمة ، لا أهوى المراجعة ولا أحب وقفات التساؤل الجانبية عن حل السؤال السابع الذى هو كذا كذا ، وليس كيت وكيت ، ويالكِ من مسكينة لم تذاكر جيّدًا أو محظوظة أتت معها بالصدفة أو خبيثة تذاكر من وراء ظهورنا .. أحب أن أنهى امتحانى وأعود إلى المنزل فورًا فأتشاجر فى الهاتف مع (هشام) وأنال قسطًا كبيرًا من الراحة قبل بدء الامتحان التالى .. وهكذا دواليك ..

ذبلت زهرة نشاطى على أعتاب الامتحان الأخير ، غزا الاحمرار عينى ، ورسم الإجهاد هالاته السوداء حولهما ، وبمجرد أن سلّمت الورقة الأخيرة إلى المراقب الحريص شعرت بأنى أكاد أهوى فاقدة الوعى ، تحاملت على نفسى وهبطت إلى بوابة الكلية حيث كان (هشام) ينتظرنى فى عربته (البوكس) الزرقاء ..

ـ سارت الأمور على ما يرام ؟!

سألنى وأنا أجلس بجواره ، ولم أقوَ إلا على هزّ رأسى بالإيجاب ..

نظر إلىّ طويلاً قبل أن يقول ببسمة مشفقة :

ـ .. انتهت الحرب الضروس أخيرًا ..

لم أقو إلا على هزّ رأسى بالإيجاب مرة أخرى ، فأدار محرك السيارة مقدمًا عرضًا ظنه مغريًا :

ـ .. لنحتفل بهذه المناسبة إذن ، ما رأيك فى دعوة على الغداء ؟!

لم أهزّ رأسى بالإيجاب هذه المرة ، وإنما نظرت إلى ملامحى البائسة فى مرآة السيارة ، شعرى المتقصف الذى أجهده التوتر والطقس ، وجهى الشاحب كميتة مع مرتبة الشرف ، الاحمرار والهالات السوداء ، ثم جاهدت كى أقول :

ـ أحتاج إلى قليل من الراحة ..

كنت أحطم أمله ، أعلم ، لكنى لم أكن أكذب ..

وإن كنت أكذب ؛ فلأنى لا أحتاج إلى القليل من الراحة فحسب ، بل إلى الكثير جدًا منها ؛ لو أردت الحقيقة ..

* * *

مرت أيام ، ولبيت دعوته على الغداء ، عندما عدت إلى (نسرين) الإنسانة ..

أضاف (الكوافير) لشعرى بعضًا من البريق والنعومة ، وأضفت الزينة الخفيفة بعضًا من الأنوثة على ملامحى

الشبحية ، هذا غير قدرتى التى استعدتها على الحديث وعلى ممارسة الحياة بعد فترة لا بأس بها من النقاهة ..

كنا نتناول الطعام فى مطعم صينى ، أحد ابتكارات (هشام) التى لا تنتهى ، عندما سألنى :

ـ ما رأيك ؟!

ـ إن كنت تسألنى عن الطعام فأنا ما زلت أبحث عن طعم له !

ابتسم (هشام) لتعليقى ، وواصل اصطياد المعجون ذى اللون العجيب من الطبق أمامه ، بالعصاتين الخشبيتين الدقيقتين ..

ـ ربما أدعوكِ على غداء حقيقى بعد أن نغادر هذا المكان ..

ابتسمت أنا بدورى ، وأعلنت استسلامى أمام صعوبة الطعام بوضع العصاتين جانبًا ..

ـ فكرة لا بأس بها ..

قلتها وأنا أراه يضع عصاتيه أمامه ، رافعًا بدوره راية الاستسلام البيضاء ..

ـ من اقترح فكرة الطعام الصينى هذه ؟!

قالها معاتبًا نفسه ، فاتسعت بسمتى وأنا أسند ذقنى على راحتىّ ..

ـ ألم يكن الكشرى أفضل كما اقترحت أنا ؟!

قال :

ـ ليكن ، سأدعوك الآن على الكشرى ، ولكن ليس قبل أن نتحدث فى أمر مهم ..

منذ متى لم نتحدث أنا و(هشام) فى أمور مهمة ؟!

فقدت بسمتى على الرغم منى ، ونظرت إليه سائلة :

ـ أى نوع من الأمور تقصد ؟!

نظر إلى بعينيه العميقتين قبل أن يتنهد مغمغمًا :

ـ من النوع الشخصى يا (نسرين) ..

صمتّ ، وكان صمتى دعوة مفتوحة له لكى يتحدث :

ـ .. متى نتزوج ؟!

برغم وجاهة السؤال صدمت ، كأنى نسيت أن خطبتنا ـ كأى خطبة أخرى ـ ليست إلا مقدمة طبيعية للزواج !

تخيلت نفسى وأنا أقول له بوجه مضرج بالحمرة ، كما يحدث فى كل الأفلام القديمة :

ـ ماذا تقول يا (هشام) ؟! لقد فاجأتنى فى الحقيقة ..

أو :

ـ لنبق أصدقاء أفضل ..

أو :

ـ يمكنك أن تحدث أبى فى هذا الموضوع ..

لكنى أخذت أمضغ صمتى ، وأوجه إليه نظرات غبية من النوع الثقيل ؛ حتى لايتحول الموقف إلى كوميديا من نوع (السيت كوم) !

قال وهو يحتوينى بنظراته أكثر :

ـ لقد انتهيت من امتحاناتك ، وأنهيت أنا تجهيز شقتى تقريبًا .. لم يبق إلا التأثيث وبعض الديكور ..

ليست هذه هى المشكلة يا (هشام) ، وإنما ...

ـ .. لنحدد موعدًا للزفاف حتى ننتهى من هذه الأمور فى أسرع وقت .. وإنما ماذا ؟! صحيح .. ما المشكلة ؟!

رفعت نحوه عينين يأكلهما الخجل ، وقلت :

ـ فيما بعد يا (هشام) ..

وأردفت فيما يشبه التوكيد :

ـ .. فيما بعد !

انعقد حاجباه فى تساؤل ، وهو يردد خلفى :

ـ فيما بعد ؟!

هززت رأسى أن نعم ، وقلت فى محاولة للتفسير :

ـ مازلت فى حاجة للقليل من الراحة قبل اتخاذ أية خطوات ..

مط شفتيه وهو يردد من جديد :

ـ القليل من الراحة ؟!

هززت رأسى من جديد ، ولم أع أننى أرفع العصاتين إلى طبقى ثم نحو فمى ، وهما تهتزان بشدة بين أعصابى المتوترة ..

* * *

مرت أيام ، ودعتنى السيدة (ألفت همام) إلى مقر الجريدة ..

ـ كيف حالك أيتها الصحفية النشطة ؟!

قالتها السيدة (ألفت) بابتسامة فى لمومة ، وقلت أنا فى غبطة :

ـ أشكرك على هذا الإطراء يا سيدتى ..

قالت متراجعة فى مقعدها الوثير :

ـ لو لم تستحقيه عن جدارة لما وجدت الداعى لقوله ..

غشيتنى الغبطة أكثر وأنا أقول :

ـ هذا يحملنى مسئولية أن أكون دائمًا عند حسن ظنك بى ..

ـ أعلم أنك ستكونين ..

ثم إنها قالت :

ـ .. الآن وقد أنهيت امتحانات العام النهائى ، ألا ترغبين فى العمل بانتظام لدينا ؟!

رباه ، إنها تتحدث عن التعيين فى الجريدة ؛ أقصى آمال أى خريج فى كليتى ..

وجمت للحظة قبل أن أقول :

ـ بالطبع يا سيدتى أرغب ، بل إننى أتمنى هذا لو أردت الحقيقة ..

قالت بلهجة عملية :

ـ منذ الغد إذن ..

وجدت نفسى أقول :

ـ كلا يا سيدتى ، أفضل أن يتم هذا متأخرًا قليلاً ..

نظرت إلىّ فى استغراب ، وأنا أتابع :

ـ .. فى الحقيقة ، كنت أطمع بعد امتحاناتى هذه فى القليل من الراحة !

شىء من الصمت ، ثم قالت السيدة (ألفت) :

ـ كما تحبين .. سأنتظرك متى قررتِ المجىء ..

غادرتْ الجريدة وأنا عاجزة عن فهم نفسى تمامًا ..

ترى ما الذى أريده ؟! ولماذا أتصرف بهذه الغرابة ؟! هل أثرت الامتحانات على عقليتى إلى هذا الحد ؟! أم أنه الملل من كل وأى شىء ؟!

سحقًا لى !

★ ★ ★

(الإسكندرية) ؟!

هتفتْ بها أمام أبى ، الذى انعقد حاجباه متعجبًا وهو يقول :

ـ أجل ، ما المدهش فى أن أحضر مؤتمر الغد فى (الإسكندرية) ؟!

لم يفهمنى ، أو فهمنى على النحو الخاطئ ..

برقت عيناى وأنا أقول :

ـ سآتى معك !

فكر للحظة قبل أن يهزّ كتفيه قائلاً :

ـ لا مانع ، سأحجز لكِ غرفة مجاورة لى ..

احتضنته وقبلته ، وتركته فى خضم دهشته من تصرفى لأجهز حقيبتى على الفور ..

نعم ، هذه هى الراحة التى أنشدها ، بضعة أيام من الاستجمام فى (الإسكندرية) آمل بعدها أن أعود إلى نفسى التى افتقدتها طويلاً ..

أو أن هذا ما كنت آمله على الأقل !

★ ★ ★

ـ صدفة رائعة يا (نسرين) ..

ـ إنها كذلك بالفعل يا (هشام) ..

ـ تصورى أننى كنت أنوى الاعتذار عن مأمورية (الإسكندرية) هذه ..

ـ جيّد أنك لم تفعل ..

ـ سأدعوك هناك على وجبة طعام بحرى لم تتذوقى مثلها فى حياتك ..

ـ بلا أسئلة محرجة ..

ـ بلا أى نوع من الأسئلة ..

أحبك يا (هشام) عندما تتحمل جنونى غير المبرر ..

ومتى كان للجنون تبرير ؟!

* * *

(الإسكندرية) منفى جميل ، وقصيدة شعر حالمة على شاطئ البحر العميق ..

أتحرر من همومى هناك ، أسير حافية على شاطئ الفندق محدقة ببصرى فى المدى البعيد ، حيث تعانق زرقة البحر زرقة السماء ، فيتلاشى الأزرق فى الأزرق ..

أجلس على المقعد القماشى وأتنهد فى راحة غامرة ، أبى فى المؤتمر و(هشام) فى العمل وأنا وحيدة ليس لى إلا البحر وتأملاتى ، ومعاهدة الصلح التى أعقدها مع نفسى ..

انقضى اليوم الأول ، وقبل أن ينقضى اليوم الثانى ، عندما كانت الشمس تذوب فى منتهى الأفق وسط ألوان باردة وساخنة ، رن هاتفى المحمول ..

ـ أتعشم أن تكونى قد نلت ما تبغين من الراحة ..

إنه (هشام) ..

ـ أخيرًا تذكرتنى يا (هشام) ؟!

قُلتُها فى عتاب خفى ، كأنى لم أطلب منه أن يتركنى لحالى طوال اليوم ..

لكم أنا غريبة الأطوار !

ـ أنا لا أنساكِ حتى أتذكرك ..

ـ شبعت من هذا الكلام الذى يحوى القليل جدًا من الصدق ..

ـ أنا لم أشبع بعد !

ـ لِنَرَ مبلغ قدرتك على التحمل ..

ـ لا نهائية ..

ثم إنه أدلى بعرضه القديم مجددًا :

ـ .. نتعشى معًا الليلة ؟!

هززت كتفىّ ، وقلت مغالبة بسمتى :

ـ دعنى أفكر .. حسن ، ولِمَ لا ؟!

ـ ستجدیننى أمام الفندق فى تمام الثامنة ..

نظرت فى ساعة معصمى :

ـ بعد نصف ساعة ؟!

قلتها فى دهشة ، فأتتنى لهفته صادقة عبر الأثير :

ـ لا أطيق صبرًا ..

تغلبت علىّ بسمتى أخيرًا :

ـ ليكن ، ستجدنى فى الانتظار ..

★ ★ ★

هرولتُ صاعدة نحو غرفتى ، ارتديت أحلى ملابسى وتركت شعرى القصير منسدلاً ، وهممت بوضع لمسات الزينة من كحل وظلال عيون وبودرة خدود ثم أحمر شفاه ، عندما رن هاتفى المحمول ..

يبدو أن (هشام) لا يطيق صبرًا بالفعل ، فقد وصل قبل موعده بخمس دقائق كاملة ..

رفعتُ الهاتف إلى أذنى أقول :

ـ سأنزل فى الحال يا قليل الصبر !

ـ إلى أين يا صغيرتى ؟!

السيد (س) ..

هو حيث لا أتوقع اتصاله بالمرة ..

لا الزمان ولا المكان يبدوان مناسبين بكل أسف !

ـ أنت ؟!

نظرتُ إلى نفسى فى المرآة ، ملامحى نصف المزيّنة يكللها ذهول بالغ وبليغ ..

ـ هو أنا دائمًا ..

ترددت قبل أن أقول :

ـ لكن ...

قاطعنى :

ـ أعلم أنك فى إجازة ، لكن القدر لا يعترف بالإجازات يا صغيرتى ..

مستغربة المصطلح المستخدم قلتُ :

ـ القدر ؟!

ـ أجل ، فأنا قدرك !

عدت أحاول القول وأجاهد التردد :

ـ لكن ...

وعاد السيد (س) يقاطعنى :

ـ لامفر من القدر .. إن الأمواج تلقى الآن بكنوزها الدفينة ..

رددتُ فى غير فهم :

ـ الأمواج ؟! كنوزها الدفينة ؟!

ـ عند أطراف شاطئ (العجمى) تموت امرأة للمرة الثانية !

أى تخريف !

ـ ما الذى تقوله ؟!

ـ السيد (س) يعنى دومًا ما يقول ..

ـ لا أحد يموت مرتين ..

لا تتحدثى عن أى شىء فى الدنيا بهذا اليقين ..

ـ لكن ...

المقاطعة مرة أخرى وأخيرة :

ـ مازال وقتى من ذهب ، أراكِ هناك يا صغيرتى ..

ـ فى (العجمى) ؟!

ـ فى المرآة !

توت .. توت .. توت ..

انغلق الخط كما يحدث دومًا ، ونظرت فى المرآة فرأيت نفسى أحدق ببلاهة ، والمحمول مازال على أذنى يطلق صفارته المتقطعة ..

السيناريو المعهود ، سأهبط الآن وأمتثل لأوامر الرجل الغامض الذى لا يعرفه أحد ..

ولا عزاء لك يا (هشام) !

★ ★ ★

الشاطئ البعيد تحت ستار الليل الأسود ..

الأمواج تتحطم فوق الصخور الصلدة ، والضوء الخافت ينبعث من الفنار البعيد ..

وعلى صفحة الماء يطفو جسم بشرى فارقته الحياة ..

جسم له تشكيل أنثوى واضح ..

شعر طويل مبتلّ السواد ، عينان جاحظتان ، خدوش وسحجات فى أكثر من مكان ، وملابس عصرية ممزقة تكسوها الطحالب ..

جسم امرأة غامضة ، ماتت مرتين !

* * *

٢ـ امرأة غامضة ..

أشعل (هشام) سيجارته الثالثة فى ضيق عصبى ، وألقى نحوى بنظرة من نار قبل أن يلتفت إلى عربات الشرطة التى تضىء قممها أنحاء الشاطئ المهجور ..

لقد فسدت الليلة تمامًا ، هذا ما قرأته فى نظرات عينيه لكنه لم يمهلنى حتى أقول له بالنظرات أيضًا : وما ذنبى أنا ؟!

مازالت الأمواج تتحطم على الصخور ، ومازال ضوء الفنار الخافت ينبعث من بعيد ، وهناك ـ بالإضافة إلى السيارات وزحام رجال الأمن على الشاطئ ـ زوارق أمنية تعبر المياه بحثًا عن شىء لا وجود له ..

ـ لم نعثر على شىء آخر ذى بال ..

هتف بها ضابط خفر السواحل الشاب دانيًا منا ، (هشام) فى حلة السهرة الأنيقة بشعره المصفف وشاربه المشذب ووجهه الطفولى الحليق الأملس ، وأنا فى ردائى نصف المهندم وزينة وجهى التى لم تكتمل ..

ـ تكفينا جثة المرأة ..

قالها (هشام) نافثًا دخان السيجارة فى حنق أعرفه عندما يبلغ هذه الذروة وأتحاشى مضايقته فى أثنائها ..

يا لها من مرات نادرة حقًا !

ـ أجل ، لقد نقلنا الجثة إلى المشرحة على الفور ..

قالها الضابط الشاب ، قبل أن ينظر إلىّ ـ للمرة المليون ـ وقبل أن يسأل متعجبًا :

ـ .. لكن ، كيف عرفتما بأمرها فى حين أنكما قاهريان ، وأن المكان بعيد هنا ، و ... ؟!

قاطعه (هشام) مخفيًا حقيقة الأمر ، التى يظنها مخجلة فى الغالب :

ـ للشرطى مصادره أنّى كان يا عزيزى ..

قال الضابط الشاب فى غير اقتناع :

ـ مصدر يخبرك عن جثة امرأة تطفو ها هنا ؟ أمر غريب !

قال (هشام) والسيجارة تدخنه :

ـ فى هذه أتفق معك !

هنا وجدت أن الوقت قد حان لتدخلى :

ـ هل يمكننى أن أعرف كيف ماتت يا سيدى ؟!

عاود الضابط الشاب النظر إلىّ ، وصمت مليًا قبل أن يقول :

ـ هذه مهمة الطب الشرعى يا آنسة ..

ـ أعلم ..

قلتها كأنى خبيرة جنائية ، قبل أن أتابع :

ـ .. لكنى أسألك عن خبرتك كضابط عتيد !

هزّ كتفيه ، وقال متقمصًا دور الخبير (كان هذا مبتغاى بالتحديد) :

ـ أعتقد أنها لم تمت غرقًا ، الكدمات والسحجات على جسدها تقول إنها عانت عنفًا ما قبل الغرق ، وربما كان سبب الوفاة متعلقًا بهذا العنف ، لكنى لا أستطيع تحديد السبب الفعلى ما لم أفحص الجثة بنفسى عن قرب ..

ربما كان هذا ما يعنيه السيد (س) ، أنها ماتت مقتولة أولاً بوسيلة ما ، ثم غريقة بعدها !

لا يقنعنى هذا ولا يرضينى ، من واقع خبرتى بالسيد (س) على الأقل ، لكنه تفسير مناسب حتى نجنى المزيد من المعلومات ..

ـ ومتى يمكنكم الاستدلال على هويتها ؟!

سأله (هشام) آتيًا على آخر أنفاس السيجارة ، ومستعدًا لإشعال واحدة أخرى ، فأجابه الضابط الشاب فى احترام فرضته الزمالة :

ـ ربما غدًا صباحًا نبدأ التحريات ..

ـ هل يمكن أن يموت الإنسان مرتين ؟!

نظرا نحوى بعد أن ند السؤال عنى لا إراديًا ، وأخفى الظلام الحمرة التى تضرجت بها وجنتى عندما حاولت قراءة نظراتهما ..

تلك النظرات التى قالت الكثير مما يحسن تجاهله بالنظر إلى ساعة المعصم والتشاغل بأفكار أخرى بناءة أكثر ..

إنها الواحدة بعد منتصف الليل لحسن حظى ، وسوء حظ (هشام) !

* * *

كان أول ما فعلته عند استيقاظى فى النهار التالى مبكرًا ، هو التحدث إلى (هشام) على هاتفه المحمول عبر هاتف الفندق ..

أتانى صوته مفعمًا بالنعاس ، وكنت أتوقع هذا لكنى لم أكن أنوى الاستسلام له ..

ـ ألم تصلك أية أنباء بعد ؟!

سؤال سخيف فى السابعة صباحًا ، ورد (هشام) بما يليق بسخافته المحتملة :

ـ الأنباء لا تصحو مبكرًا حسبما أعلم ..

هتفتُ فى حماسة :

ـ دعنا نوقظها إذن ..

أتانى صوته قاطعًا :

ـ سأمر عليك فى الفندق بعد أن أنتهى من بعض الأعمال ..

وأتاه صوتى مشتعلاً :

ـ سأنتظرك على جمر ..

تثاءب (هشام) ثم مازحنى :

ـ انتبهى فقط لأطراف ثوبك !

ضحكتُ ، وكان هذا غريبًا ..

أين أنا الآن منى البارحة ؟!

أى مفعول سحرى يملكه هذا السيد (س) العجيب على طاقتى الكامنة ، التى تنفجر بمجرد أن تلمسنى عصاه السحرية ؟!

سأنتظر على جمر ، ولتحترق أطراف ثوبى فلست آبه لهذا على الإطلاق ..

* * *

غادرت غرفتى فى نفس اللحظة التى غادر فيها أبى غرفته ..

البابان متواجهان ، وهى صدفة غريبة لكنها منحت اليوم مذاقًا طيبًا يشهينى لإكماله ..

أطلق أبى صفيرًا محببًا ، وهتف بى :

ـ ما هذا البكور غير المعتاد ؟!

هششتُ فى وجهه ، وقلت :

ـ متى اعتدت منى أى شىء حتى تتحدث عن الاعتياد اليوم ؟!

رفع ذراعه فى دعوة صامتة لى حتى أعانقه بذراعى ؛ ولنمشى بعدها بين أبواب الغرف فى الوضع الشهير الذى يسميه الفرنسيون (أنجاجيه) !

ـ ربما يحمسك هذا لحضور الورقة العلمية التى أطرحها اليوم ..

قلتُ فى حب صادق :

ـ لا أحتاج إلى ما يحمسنى لهذا كما تعلم ..

ـ لولا إشفاقى عليك من الجو الكئيب لاصطحبتك معى فى كل مؤتمراتى العلمية .. لكن ، ما ذنبك أنتِ حتى تجلسى وسط مومياوات مهتمة بأمر مثل (أثر الاضطرابات العضوية للمخ على الذاكرة الرضية) ، تلقيها على مسامعهن مومياء أخرى هى أنا ؟!

قلتُ فى صدق محب :

ـ لو أن كل المومياوات بهذا الشكل فسأقدم طلبًا رسميًا بأن أحنّط غدًا !

وتذكرت أمرًا فقررت أن أنهل من علم أبى الغزير ، بحكم كونه الدكتور (فاروق الجبالى) جراح المخ والأعصاب الشهير :

ـ .. بالمناسبة ، هل يمكن أن يموت الإنسان مرتين يا أبى ؟!

انعقد حاجباه بغتة وهو يحاول هضم السؤال أو استكناه مغزاه الخفى ، ثم قال ونحن نقف أمام مصراعى المصعد الموصدين :

ـ ربما تتحدثين عن تجارب الاقتراب من الموت near- death experiences التى يشعر فيها الإنسان بأنه مات فعلاً ثم عاد إلى الحياة مجددًا ؛ ليروى ما مر به فى أثناء معاناته لهذه الخبرة المروعة غير الاعتيادية ..

إحم ، فى الحقيقة يا أبى أنا لا أعرف عم أتحدث !

انفتح مصراعا المصعد ، وهو يتابع حديثه فى بطء كأنما يعتصر أفكاره اعتصارًا :

ـ .. هناك أبحاث ميتافيزيقية أيضًا تناقش العودة من الموت واستنساخ الأرواح وخلافه ، لكنى لم أتعمق فى دراستها كما يجب .. ما أعرفه أن العلم والأديان ترفض هذه الفكرة من أساسها ..

أعلم ، لكنى واثقة من أن السيد (س) صادق فيما يقول دومًا ..

واصل أبى :

ـ .. ما سر اهتمامك بهذه المسائل الشائكة ؟! مغامرة صحفية جديدة مع البطل المجهول الذى لا يعرفه أحد ؟!

احتوانا المصعد الأنيق الذى انغلق مصراعاه وأنا أقول :

ـ مجرد فكرة طارئة ، لا تشغل بالك بها ..

كان يعلم أننى أقول نصف الحقيقة ، لكن عذرى هو أننى لا أريد أن أثير مخاوفه علىّ ، خاصة بعد أن استقرت فى جسدى رصاصة كامنة فى أثناء المغامرة الأخيرة ..

سأتحرك بمفردى كما اعتدت دومًا ، فقط بعد الحصول على المعلومات ..

جلست على مقعد بين مومياوات ؛ ألقى أبى محاضرته على مسامعهن ، ذهنى شارد وأننى لا تسمع وعقلى خارج نطاق الخدمة ..

عذرًا يا أبى لكنه العمل والسيد (س) والموت مرة ثانية !

بمجرد أن انطلقت الصافرة الحادة السريعة من هاتفى المحمول ؛ صافرة (الاجتماعات) التى تنطلق دون أن تفسد اجتماعًا ، تسللت فى خفة بين الحضور ، ولحسن الحظ كانت القاعة مظلمة إذ يشرح أبى نظرياته عبر شرائح ضوئية مكبرة ، سيعفينى هذا من الحرج أمامه فيما بعد عندما تنتهى هذه المغامرة ..

كان رقم محمول (هشام) ، وكان ينتظرنى فى بهو الفندق فى الأسفل ، فهبطت مثل سهم ..

استقبلنى فى وجوم ، مدخنًا سيجارة وناظرًا إلى فى عمق حتى جلست أمامه ..

ـ هل حدث زلزال أم ماذا ؟!

سألتُه من باب الدعابة السمجة ، فنفث دخان السيجارة وصمت ..

ـ .. ما بك يا عزيزى ؟!

كررت بها محاولتى ، فهزّ (هشام) كتفيه وقال هازًا رماد السيجارة فى المنفضة بيننا :

ـ مررت على أحد أصدقائى فى المباحث ها هنا قبل أن آتى لأصحبك !

خيانة مبينة !

ابتلعت رغبتى فى قولها وقررت أن أكون أكثر إيجابية :

ـ وماذا كانت النتيجة ؟!

ـ تعرفوا على هوية المرأة جزئيًا ..

متعجبة رددتُ :

ـ جزئيًا ؟! كيف ؟!

صمت هنيهة قبل أن يقول :

ـ الغريب أنها بالفعل قد ماتت مرتين !

انتفض قلبى بين ضلوعى ..

إن السيد (س) محق دومًا ..

لكن ، كيف هذه المرة ؟!

* * *

ضابط شاب آخر ، يستقبلنى أنا و(هشام) فى مكتبه مقدمًا لنا المرطبات والحلوى ، ويقرأ لنا من ملف التحريات أمامه ..

ـ الاسم (دعاء محمود شريف) .. يبلغ عمرها بتاريخ اليوم ٣٧ عامًا ..

(هشام) يقتل نفسه بصبر ودأب ، وأنا ذاهلة عنه وعن دخان سجائره كأنى منومة مغناطيسيًا ..

ـ .. تخرجت فى كلية الآداب السكندرية قسم (علوم اجتماعية) ، وتزوجت من زميلها فى الكلية (علاء مراد) الذى كان يعمل معيدًا ؛ لتنجب منه ابنًا واحدًا يبلغ من العمر الآن خمسة عشر عامًا ..

تحريات وافية لا تثير دهشة أحد حتى الآن ، لكن ..

ـ .. تنتمى فى الأصل إلى أسرة متواضعة من حى (الأنفوشى) ، والدها موظف فى هيئة الصرف الصحى ووالدتها ربة منزل ، لها شقيقة واحدة تصغرها بسنتين فقط مرت بتجربة زواج فاشل ، وتقيم مع والديها الآن ..

كل هذا لا يثير الدهشة ، لكن ..

ـ .. صعد زوجها إلى قمة الثراء فجأة منذ سنوات ، هجر التدريس الجامعى ومارس الأعمال الحرة تحت بند الاستيراد والتصدير ، ترك شقته القديمة فى (سيدى بشر) وابتاع قصرًا فى (العجمى) حيث يقيم الآن مع وحيده (إيهاب) ..

أيضًا لا يثير الدهشة ، لكن ..

ـ وهى ؟! كيف اختفت ؟!

ند السؤال عنى فى لهفة لا حد لها ، فتنهد الضابط الشاب ، وأبعد (هشام) نظراته عنى مختليًا بدخان سيجارته الأثير ، كأنى أسأل عن أمور محرجة لا يصح الإجابة عنها ..

قال الضابط الشاب فى النهاية وهو يرفع بصره عن ملف التحريات ، ويسدده نحوى :

ـ هذه هى النقطة المعقدة فى الأمر كله ..

عدتُ أسأل :

ـ عن أى نقطة تتحدث بالتحديد ؟! اختفائها أم كيفيته ؟!

قال على الفور :

ـ لا فارق ..

ثم إنه فسر ناثرًا بذور الشطة فوق جروح أسنلتى :

ـ .. لقد ماتت قبل هذه المرة التى عثرنا فيها على جثتها !

صرختُ وقد كدتُ أفقد عقلى :

ـ ما معنى هذا بالله عليك ؟!

رفع ورقة من ملف التحريات ، لوح بها فى وجهى وهو يقول :

ـ هذه شهادة وفاة تحمل اسمها ؛ (دعاء محمود شريف) ، محررة بتاريخ يعود إلى عشر سنوات ماضية تقريبًا !

صرختُ وقد فقدت عقلى فعلاً :

ـ ماذا ؟!

ـ اهدئى قليلاً !

همس بها (هشام) فى حرج ، ولم أنتبه أنا إلى أننى أضعه فى موقف متضائل أمام زميله الذى لا يتمنى خطبة فتاة مثلى بكل تأكيد :

ـ ولكن جثتها .. أعنى ..

لم أجد ما أتم به العبارة ، فقال الضابط الشاب وقد قدّر موقفى :

ـ لك كل الحق فى الاندهاش ، لكن الإجابة بسيطة ..

واستطرد شارحًا إذ وضع شهادة الوفاة فى مكانها داخل الملف :

ـ .. منذ عشر سنوات تقريبًا ، شب حريق فى شقة (سيدى بشر) القديمة التى كانت تضم الزوجين ، ولم يكن فيها ساعة الحريق سوى (دعاء) ، أما الزوج فقد كان يُحضر الابن من المدرسة ساعة الظهيرة ، بعد إبلاغ رجال الإطفاء وإخماد الحريق ـ الذى تبين أن سببه انفجار أسطوانة الغاز ـ

تم العثور على جثة (دعاء شريف) متفحمة ، تعرف عليها الزوج من وجود خاتم الزوج فى بنصرها الأيسر ، وفى الحال تم استخراج شهادة وفاة وتصريح دفن لها ، وأغلق الملف منذ هذا اليوم ..

قلتُ أول ما خطر ببالى على الفور :

ـ بالتأكيد لم تكن هى ..

قال (هشام) :

ـ هذا وارد بالتأكيد ؛ إذ يصعب التعرف على سمات المحترق الخارجية ..

قال الضابط الشاب :

ـ لم يثر الأمر شكوك أحد وقتها ، واعتُبر الحادث قدريًا وقع بطريق الخطأ ، فتم إجراء تحقيق روتينى سرعان ما حُفظ ، وأغلق الملف قبل حتى أن يُفتح ..

اختلطت فى رأسى الأفكار وتقاطعت الخطوط والمسارات ..

من أى خيط يمكننى البدء فى هذا النسيج المتشابك ؟!

قال الضابط الشاب :

ـ .. الغريب فى الأمر أن الزوج (علاء) قد بدأت أموره

المادية فى التحسن بعد الحادث مباشرة ، فتضخمت ثروته على نحو مباغت ، وانتقل إلى قصره الجديد بعدها بعامين فقط ..

هذا مثير للشك ، فكرتُ ..

وقال (هشام) :

ـ هذا مثير للشك !

فاتفقت أفكارنا !

أومأ الضابط الشاب برأسه إيجابًا ، واسترخى فى جلسته قبل أن يقول :

ـ هذه القضية تثير أسئلة لاحصر لها ، أين اختفت المرأة الغامضة هذه طوال العشر سنوات الماضية ؟! وكيف ؟! ولماذا ظهرت فجأة هكذا ؟! لماذا تم تدبير حادث موتها الأول ؟! وكيف ماتت فى المرة الثانية ؟! من وراء كل هذا ؟! هى وحدها أم أن لها شركاء ؟!

سأله (هشام) وهو يشعل سيجارة من أخرى :

ـ وبم ستبدءون ؟!

هزّ الضابط كتفيه وهو يقول فى بساطة :

ـ بما فى أيدينا ، الجثة بالطبع ..

سألتُ وأنا أجاهد للسيطرة على انفعالى الكاسح :

ـ هل انتهى تقرير الطب الشرعى ؟!

ـ ليس بعد ، ولكن جار إعداده على قدم وساق ..

قالها الضابط الشاب ثم أضاف :

ـ .. وقد استدعينا (علاء مراد) لكى يتعرف الجثة ..

قطب (هشام) متسائلاً :

ـ بعد عشر سنوات ؟!

ووجدت نفسى أهتف فى جنون :

ـ أريد أن أراه ..

انتبهت إلى أن الضابط الشاب قد رمق (هشام) بنظرة جانبية لامة ، وأن (هشام) قد نفث النيران من وجنتيه المحمرتين غضبًا علىّ أو خجلاً منى ، لكنى لم أتراجع ، وتابعت :

ـ .. بحكم كونى صحفية لا أكثر !

لو كان هذا سيصلح من الأمر شيئًا !

* * *

أغنية المشرحة الخالية، قصة جميلة للرائع (محمد المنسى قنديل) أتذكرها وأنا أسير بين طرقات المشرحة الخالية ..

رائحة الموت والفورمالين والجثث المحفوظة ..

قال الطبيب الشرعى وهو ينقل بصره بينى وبين (هشام):

ـ الوفاة تعود إلى يومين ماضيين فقط!

ماذا عن السنين العشر ؟!

سأل (هشام) وهو يتعذب لسعادتى بمنعه الإجبارى عن التدخين ها هنا:

ـ وما سببها يا دكتور ؟!

قال الطبيب فى اقتضاب:

ـ اختناق ..

استفسرتُ:

ـ اختناق الغرق ؟!

هزّ الطبيب رأسه نفيًا، وقال:

ـ بل اختناق بكتم النفس ..

وفسر بقوله، عندما لمح التساؤلات المطلة من عيون أربع:

ـ .. الأدلة التشريحية على الاختناق عمومًا جلية فى الاحتقان العام نتيجة نقص الأكسجين وتمدد الشعيرات الدموية ثم امتلائها بالدم، بالإضافة إلى ظهور بقع (تارديو) تحت الأغشية المصلية مثل غشاء الرئة والصفاق، وإلى انتفاخ الأحشاء الداخلية .. أما الاختناق بكتم النفس الذى نسميه باللاتينية smothering فواضح من خلال التغيرات الموضعية الظاهرية على هيئة كدمات وسحجات حول الفم والأنف، بالإضافة للشحوب المحيط بالفم مقارنة ببباقى الوجه، مع تكدم وجروح صغيرة على السطح الداخلى للشفاه واللثة والخدين وتخلخل ثلاثة أسنان وكسرها، نتيجة المقاومة فى الغالب ..

قال (هشام):

ـ هذا قتل متعمد إذن ..

هزّ الطبيب رأسه بالإيجاب قائلاً:

ـ أستطيع أن أؤكد هذا ..

قلتُ:

ـ أهذا كل شىء ؟!

أجاب الطبيب :

ـ ليس أكثر من جروح ملتئمة فى غير موضع ، منها جرح بالغ أحدثه طلق نارى فى الفخذ ، وتم التعامل معه بالخيوط الجراحية فى مهارة ..

سألتُ :

ـ جرح حديث ؟!

ـ بل قديم ، نسبيًا !

ـ منذ متى تقريبًا ؟!

ـ منذ عدة أعوام !

ثم إنه قام بوصل ما انقطع :

ـ .. هناك أيضًا أثر لجراحة تجميلية قديمة فى الأنف تعود لبضع سنين ، ووشم على الذراع الأيسر يمثل ...

قاطعته :

ـ وشم ؟!

تابع مستغربًا :

ـ أجل ، وشم يمثل دائرة مفرغة ..

استيقن منه (هشام) :

ـ دائرة فقط ؟!

ـ أجل ، مفرغة لا تحوى أى شكل آخر !

حان الآن موعد تقمصى لدور (هولمز) حسب التوقيت المحلى لهذه المغامرة :

ـ هذا مثير للشكوك حقًا ..

التفتَ إلىّ (هشام) يسألنى :

ـ هل من أسئلة أخرى ؟!

أجبته بطريقة عملية موجهة حديثى نحو الطبيب :

ـ ماذا عن الزوج ، هل تعرف على الجثة ؟!

ـ أجل ، تعرف عليها وقال إنها هى بالفعل ..

هنا حان موعد تقمص (هشام) لنفس الدور المذكور ، (هولمز) أعنى :

ـ حقًا ؟! لم يكن هذا متوقعًا ..

ابتسم الطبيب وقال :

ـ لم يكن الإنكار لينفعه فى ظل تأكدنا من هويتها ..

سألتُ سؤالاً له مغزى :

ـ وماذا كان رد فعله ؟!

وأتاني جواب له مغزى :

ـ كان رد فعله غريبًا ..

ثم تفسير له أكثر من مغزى :

ـ .. لم يطرف له جفن ، تجمدت ملامحه كأنه استحال لوحًا من ثلج ، وغادر المكان فى هدوء كما دخله بكل هدوء بعد أن قال كلمة واحدة لا غير ..

كلمة واحدة !!

ـ .. هى !

* * *

٣ـ شكوك معتادة ..

أنزلنى باص (المشروع) الصغير عند بداية (العجمى) ، وأوصلتنى سيارة أجرة مطلية بالأصفر والأسود إلى بوابة قصر (علاء مراد) فى شاطئ (الزهراء) ..

نقدت السائق أجره فابتعد بسيارته ، وألقيتُ بنظرة على العنوان المنتزع من دليل الهواتف لأطابقه بالمكان الذى رحبت بى فيه شمس القيلولة اللطيفة ..

اقتربت من البوابة الحديدية الموصدة ، ونظرت إلى الأسوار العالية ، ثم ضغطت زر الدكتافون المجاور فى جرأة لا أفتقدها ..

لم أتصل بـ (علاء مراد) ولم آخذ موعدًا ، لكنى سأدخل وأقابله ، وإن تطلب الأمر فسأظل هنا حتى يبرز من وراء الباب ولو بعد شهور .. أنتم تعرفون (نسرين الجبالى) عندما تقرر فعل أمر ما ، من ذا الذى يستطيع عندئذ إثناءها عنه أو حتى تثبيط همتها ؟!

ضغطت زر الدكتافون مرة ومرة ، وقبل أن يتسلل إلىّ اليأس من وجود أحد أتانى الصوت البارد كجليد (الألب) ، إن كان الأخير بهذه البرودة :

ـ من ؟!

تحليت بكل ما فى جعبتى من جرأة لأقول :

- أريد مقابلة السيد (علاء مراد) من فضلك ..

برود (الإسكيمو) هذه المرة ، لو كانت (أنتاركتيكا) بهذه البرودة :

- من تكونين ؟!

قلتُ مختصرة الطريق ، أو هكذا تخيلت :

- صحفية من ...

قاطعنى المزيد من الجليد :

- خذى موعداً فى وقت لاحق ..

هتفت وقد خلت المتحدث يضع سماعة ما ، فجاهدت للحاق به :

- إن لدى معلومات تهم السيد (علاء) عن (دعاء) ..

صمت طويل ، كأنه قد وضع السماعة بالفعل ..

ثم :

- (دعاء) ؟!

كدت ألفظ حنجرتى هاتفة :

- زوجته (دعاء شريف) ، أجل .. إنى أعرف عنها أشياء !

طوبى للكذب المهنى الأبيض ، خاصة عندما يتعلق الأمر بالصحافة !

لم يأتنى صوت ، فقط أزت البوابة الكهربية المواجهة لى لتنفتح فى النهاية عن قصر من ليالى الأساطير العربية ، قصر من عالم ألف ليلة وليلة لا أقل ..

الجدران الخارجية مبنية على الطراز العربى الإسلامى ، نقوش وزخارف أرابيسك ، مشربيات خشبية وزجاج معشق وأيقونات موحية ، والحديقة غناء تتوسطها نافورة مطعمة بقطع الفسيفساء الملونة ، وتربض فى منتصف ممرها المرصوف بالزلط الملون سيارة من طراز (مرسيدس بنز) الفئة A ذات العيون المميزة ، وتظللها أشجار السرو وتتناثر فيها الزهور وكلاب الحراسة الوادعة !

دلفت فى حذر ، تَلَفَّتُ حولى بحثًا عن رجل أمن أو خفير ، لكنى لم أجد ما يوحى بوجود بشرى إلا فى ظل بعيد عن الشرفة العالية ، حيث يقف رجل لم أتبين ملامحه ، لكنى أستطيع الجزم بأنه ينظر نحوى ..

ولا أدرى لم شعرت بيقين أنه (علاء مراد) ، هدفى فى منتصف عدسة قنص خيالية ..

تقدمت بنفس الحذر ، داعبتنى روائح الزهور العطرة ، أنعشت روحى وشجعتنى على الاستمرار حتى باب القصر الخشبى الذى لم أتخيل أن أرى مثله إلا فى قلاع السلاطين القدامى .. كان الظل قد اختفى من الشرفة العلوية فحدست أنه فى طريقه نحوى ، وها هو ذا الباب ينفتح فى النهاية ليبرز الظل فى بعض الوضوح النسبى ..

ممشوق القامة ، عريض فى اتساق ، يرتدى ملابس كلاسيكية ؛ قميصًا وبنطلونًا ينمان عن ذوق رفيع ، عطر رجالى يملأ أنفى فى اقتحام ، ومع عبوره من الباب نحوى بدأت ملامحه تتضح أكثر تحت ضوء شمس القيلولة اللطيفة ؛ جلد جليدى البياض ، عينان فيها زرقة ثلوج غير قابلة للذوبان ، أنف حاد مثل السكين ، وشفتان رفيعتان كشوكتين ..

ـ أهلاً ..

قالها فى لهجة طاردة ، حتى صوته يبعث القشعريرة الباردة فى أوصالى كأننا لسنا فى صيف ، لكنى أعرف كيف أتجاهل هذه الأمور البسيطة جيدًا ..

ـ أتمنى ألا أكون قد سببتُ لك أى إزعاج يا سيدى ..

انعقد ساعداه أمام صدره ؛ ليلمع سواره الفضى حول المعصم الأيمن ، وخاتمه الفضى حول بنصره الأيسر ، وهو يقول :

ـ أتمنى أن ينتهى كل شىء بسرعة ..

أعرف كيف أتجاهل هذه الأمور البسيطة جيدًا :

ـ أنا أيضًا أتمنى هذا يا سيد (علاء) ..

ثم إنى سألته فى خبث مكشوف :

ـ .. أنت السيد (علاء مراد) إن لم أكن مخطئة ؟!

قال منهيًا محاولاتى البائسة فى التودد إليه :

ـ قلتِ إن لديك بعض المعلومات إن لم أكن مخطئًا ..

ببسمة مصطنعة ولهجة أكثر اصطناعًا ، قلت :

ـ بخصوص السيدة (دعاء) .. زوجتك ؟!

ـ لا تنتظرى إجابات عن أى أسئلة !

ـ الأسئلة تفرض نفسها فرضًا يا سيدى ، ما لى فى ذلك حيلة !

ـ كفّى عن المراوغة ، وانصرفى فى هدوء لو كان هذا هو مقصدك ..

كاد يلتفت مبتعدًا إلى الداخل ، لكنى لم أعدم وسيلة لاستبقائه :

ـ ما يحدث يضعك فى مركز دائرة الشبهات يا سيدى ..

التفت إلىّ بعينين خاويتين ، هل لهذا الرجل أصول روسية ما ؟!

ـ أعلم ..

قالها (علاء مراد) كطلقة أصابت مكامن دهشتى ، فهتفتُ :

ـ يبدو أن لاشىء يدهشك فى كل ما جرى ..

ـ من قال هذا ؟!

هو الذى يراوغ هذه المرة ، ومادام قد اتخذ موضع الدفاع فعلىّ أن أقتنص فرصة الهجوم قبل أن ...

ـ لقد ماتت منذ يومين فقط ، والمفترض حسب الأوراق الرسمية أنها ماتت منذ عشر سنين ، هل لديك تفسير ما لهذا التناقض ؟!

هزّ كتفيه ليقول فى لامبالاة أثارت استفزازى :

ـ تصورتُ أنك تملكين تفسيرًا ما ..

هتفتُ مستثارة :

ـ إنك غير حزين عليها ، غير مندهش حتى .. كأنك كنت تعلم أنها لم تمت ..

لاح طيف بسمة ساخرة فوق شفتيه الحادتين كشفرتى موسى وهو يقول :

ـ محققة خائبة ..

تعاظمتْ دهشتى من ردود أفعاله غير المتوقعة ، ووجدتنى أهتف فيه :

ـ أين اختفت (دعاء) كل هذه المدة ؟!

ـ أخبرتك أننى لن أجيب عن أسئلة ..

ـ سيوجهون لك هذه الأسئلة فى النيابة لو كنت لا تعلم ..

ـ أعلم ، لكنك لست منهم ..

إنه يلهو بى وبأعصابى ، هذا الـ ...

لهثتْ كاظمة غيظى حتى النهاية ، وقلت :

ـ يبدو أنك قد استفدت من اختفائها على أكمل وجه ..

كنت أشير إلى القصر والحديقة والسيارة أمام البوابة التى يدلف منها شخص ما ، بينما نتحدث ونتبادل الاستفزاز كأفضل ما يكون ، ففوجئت به يخفض صوته وهو يقول فيما يشبه التهكم :

ـ ولم لا تقولين إننى قد قتلتها فى المرتين ؟!

ـ هاى ، أبى !

الهتاف من عند البوابة ، ند عن فتى فى ريعان الصبا وميعة المراهقة ، يترجل من فوق دراجة ذات مقود معوج إلى الداخل ، يرتدى سروالاً قصيرًا وقميصًا قطنيًا بلا أكمام ، ويضع قبعة واقية من الشمس على رأسه ، بينما تسد أذنيه سماعتان دقيقتان تنتهيان عند جهاز مشغل الـ mp3 الصغير المعلق بحافة السروال ..

نظرت إليه ، ثم حولت بصرى إلى السيد (علاء) الثلجى وهو يشير إلى الفتى بيده وابتسامته الباهتة ، لأسأل :

ـ هذا (إيهاب) ابنك ، أليس كذلك ؟!

نظر (علاء مراد) إلىّ فى غلّ أجهل مصدره ، وقال بنفس بروده القاتل :

ـ يمكنك الانصراف الآن ، لقد خدعتنى وانتهى الأمر ..

قلتُ فى عناد :

ـ لكنى لم أفهم شيئًا بعد ..

قال وغله يتصاعد دماءً إلى بشرته الكالحة :

ـ لست موكّلا بإفهامك أى شىء ..

هنا لجأتُ إلى ابتزاز إنسانى رخيص ، كورقة ضغط ليس إلا :

ـ ماذا عن (إيهاب) إذن ؟!

هنا بلغ به الغل ذروته ، فكشر عن أسنانه وكاد يمسك بتلابيبى لولا حضور ابنه على مقربة منا ـ لحسن الطالع :

ـ إياك أن تتحدثى معه بكلمة واحدة ، فهو يجهل كل ما يحدث ..

استعنتُ بقدراتى الخارقة على الغمغمة :

ـ ليس إلى الأبد بكل تأكيد !

غمغم وهو يكابد حنقًا لا قبل للعالمين به :

ـ سيكبر يومًا وستنمو معه القدرة على امتصاص صدمة كهذه ، أما الآن ...

(علاء) مازال يرمقنى بنظراته النارية من أمام البـاب ، وبرغم هذا تجرأت وتقدمت من الفتى قائلة :

ـ هل سقطت منك هذه ؟!

التفت إلىّ الفتى ، زرقة عينيه لأبيه وسكونها الوديع لأمـه ، ونظر إلى الصورة قبل أن تنفرج أساريره وهو يهتف :

ـ أجل ، أشكرك يا (تانت) ..

وانتزع الصورة من يدى ، ليضمها إلى صدره النحيل قائلاً :

ـ .. أنت لا تعلمين ما تمثله لى هذه الصورة ..

ابتسمت على الرغم منى وأنا أقول له :

ـ انتبه لحاجياتك فى المرات القادمة ..

ومضيت نحـو البوابة ، متجاهلة نظرات (علاء) التى أصبحت أكثر نارية ، وغارقة فى خضم أفكارى المتركزة حول محور واحد تقريبًا :

(علاء) يملك مفتاح حل هذا اللغز ، إن لم يكن هـو المفتاح نفسه ..

* * *

ونفثت نيرانًا من فتحتى أنفه قبل أن يتابع :

ـ .. أما الآن فتفضلى بالمغادرة ، ولا تعودى إلى هنا أبدًا ..

ولدهشتى العارمة ، وجدت نفسى أبتعد ..

متى كنت مطيعة إلى هذا الحد ؟!

شيعنى السيد (علاء) بنظراته حتى بلغت البوابة ، وعلى الأرض لمحت شيئًا يبرق فيما كان (إيهاب) يربط دراجته قريبًا منى ، فانحنيت ألتقطه ..

للدقة ، انحنيت ألتقطها ..

صورة لامعة ملونة ، تمثل امرأة شابة تبتسم للكاميرا على خلفية من زرقة هادئـة ، شـعرها قصـير ووجههـا مكتنز ، حواجبها مرسومة بقلم بنى وفمهـا مطلى بـالوردى الرخيص ، وعيناها تشعان بالسكون والوداعة ..

على ظهر الصورة وجدت عبارة مدونـة بالإنجليزيـة : أحبك يا أماه ، وحرف لاتينى واحد هو الـ E ..

(إيهاب) يبدأ اسمه بهذا الحرف ، وهذه صورة أمـه (دعاء) التى لم أرها حتى الآن ، لأنتبه أخيرًا إلى أننى أفتش فى ماضى امرأة لم أرها من قبل !

لم يكن الوصول إلى البيت القديم فى (الأنفوشى) بهذه الصعوبة ..

عبرت مراكب الصيادين وقلعة (قايتباى) صاعدة نحو الجنوب ، وفى لحظات كنت هناك ليحتوينى الحى القديم ، بينما قرص الشمس يغرق فى المدى البحرى القصى ..

عبرت بيوتًا كثيرة حتى استدللت على عنوان السيد (محمود الشريف) فى حارة ضيقة ، كما هو مدون فى دليل الهاتف ..

فتحت لى السيدة (هدية) ـ زوجته ـ باب المنزل القديم المتداعى ، وسألتنى عن هويتى بعينيها فقلت على الفور :

ـ (نسرين الجبالى) ، صحفية من (القاهرة) ..

أدخر ثروتى من الكذب الأبيض لحين الحاجة ، ولا أبددها فيما لا طائل من ورائه ..

دعتنى إلى الدخول بكرم حاتمى لا ينقصه الحذر ، ونادت زوجها الذى استقبلنى بجلبابه المنزلى المخطط بالطول فى حفاوة مضطربة ، إذ ربما فكر فى أن الأمر يتعلق بمنصبه الوظيفى فى الصرف الصحى ، أو بقضية رأى عام حول الصرف السكندرى وما إلى ذلك من أخبار وتحقيقات ..

ـ خيرًا يا ابنتى ..

قالها الرجل ..

كان نحيلاً ببشرة سمراء وعينين خضراوين ، شأن غالبية الإسكندرانية ، فقلت وأنا أتناول زجاجة المياه الغازية وأهيم فى خضرة عينيه :

ـ خيرًا يا سيدى إن شاء الله ، أنا هنا بشأن موضوع قديم بعض الشىء ..

كنت حائرة فى إيجاد المدخل الذى يصلح لوضع حساس كهذا ، بالتأكيد هم لم يبلغهم خبر العثور على جثة ابنتهم أمس ، ولعمرى فهذا هو السير على خيط رفيع معلق فى الهواء كما تنص الكتب ..

أن تثكل الابن مرتين ، ما الذى يمكن أن يفوق هذا عذابًا ؟!

جفف السيد (محمود شريف) عرقه بمنديل قماشى أبيض وهو يسأل فى اضطراب يتعاظم :

ـ أهو شأن خاص بالعمل أم ؟!

ولم يجد ما يتم به عبارته ، فقلت وأنا أكسو وجهى بقناع الجد :

ـ بل بشأن ابنتك ..

ذهل لوهلة ، ثم قطب متسائلاً :

ـ (صفاء) ؟!

هذا هو اسم الابنة الصغرى إذن ..

كدت أخبره بأنى أقصد الأخرى عندما باغتنى هتاف الأم الوجل :

ـ ماذا عنها ؟! هل ارتكبت شيئاً ما ؟! إنها طيبة وفى حالها ..

قلت وأنا أتنهد مفكرة فى مدى صعوبة الموقف :

ـ كلا ، ليست (صفاء) !

صمتا وحدقا بى ذاهلين ، دون أن يجرؤ أى منهما على النطق بحرف واحد ..

ـ ليس لهما ابنة غيرى يا آنسة !

كانت تقف عند نهاية الصالة الضيقة ، نسخة أخرى من الصورة التى رأيتها مع (إيهاب) منذ قليل ، كأنهما توءمان ..

سألتها بعد أن تشربت ملامحها فى عينى ، وأدركت مكامن الاختلاف الشكلى بينها وبين شقيقتها ؛ وهى فروق طفيفة للغاية :

ـ أنت (صفاء) ؟!

تقدمت منى وصافحتنى قائلة :

ـ أجل ، (صفاء شريف) ..

ـ (نسرين الجبالى) ..

قالت فى ثبات برقت له عيناها :

ـ أعلم ما أتيتِ بشأنه ، تفضلى معى لنتحدث على انفراد فى الشرفة ..

لم يكن لدى أدنى مانع ، فنهضت تاركة الأب والأم يتبادلان نظرات يكللها فزع له ما يبرره ، لكنه يشل الألسنة والأطراف ..

ـ إنها جثة (دعاء) التى عثروا عليها ، أليس كذلك ؟!

نظرت إليها مقطبة ، فقالت موضحة :

ـ .. علمتُ كل شىء ، لكنى لم أشأ أن أجعلهما يُفجعان فيها للمرة الثانية ، أعنى أبى وأمى بالطبع !

سألتها وحاجباى ينعقدان أكثر :

ـ وكيف علمتِ بالخبر ؟!

تنهدت فى عمق ، وتحاشت النظر إلىّ وهى تغمغم :

ـ (علاء مراد) أخبرنى !

هتفت دون أن أنتبه لعلو صوتى :

ـ زوجها ؟!

ـ أرملها !

قالتها فى مقت ، فعدت أقطب وأقول :

ـ أنت تعرفين ، وتتكتمين على سر ما ..

غمغمت فى حنق وهى ما زالت تتحاشى النظر نحوى :

ـ نعم أعرف ، أعرف أن هذا اللعين وراء كل ما حدث لها !

بلهفة لاحد لها سألت :

ـ كيف هذا ؟!

ـ هذا ما لا أعرفه !

أيتها الـ !

ـ .. كان يعاملها بقسوة عندما كانا يعيشان فى (سيدى بشر) ، يضربها ويسىء معاملتها كأنه استعبدها ، وكانت المسكينة صابرة محتملة ، حتى دبر هو ذلك الحادث المصطنع ليخفيها عن الأنظار ، وليستغلها لخدمة أغراضه الدنيئة التى صعدت به إلى قمة الثراء ..

ـ هلا وضحتِ ما تقولينه قليلاً ..

قالت فى مرارة :

ـ ليتنى أستطيع !

ساعدتها بأسئلتى :

ـ كيف دبر ذلك الحادث ؟! وجثة من التى احترقت وفى إصبعها خاتم الزواج ؟! وأى أغراض تلك التى استغلها فيها (علاء) طوال عشر سنوات ؟! ولماذا قتلها مرة ثانية ؟! كل هذا لا يبدو منطقيًا بالمرة ..

قالت (صفاء) :

ـ إنه أذكى من أن يكشف وسائله ، لكنى واثقة مما أقول ..

هتفت مستنكرة :

ـ أى ثقة هذه ؟!

نظرت إلىّ وقالت :

ـ لقد كنت آخر من رآها قبل أن تختفى منذ عشر سنوات ، كنت فى زيارة لها ، وبعد ساعة واحدة من مغادرتى لها بلغنى نبأ الحريق ومصرعها ..

قلت باستنكار أكبر :

ـ هذا أيضًا لا يمنحك كل هذه الثقة !

قالت :

ـ (علاء) كان ـ وما زال ـ يرغب فى التقرب منى على حساب شقيقتى ، ويومها اكتشفتْ هى تلك الحقيقة ، وكانت الصدمة عليها شديدة عندما عرفت أنه على علاقة بنساء أخريات فى الخفاء ..

ارتبكتْ ، وسألتْ :

ـ لكن هذا يبدو غير منطقى !

ولملمت أفكارى بسرعة لأتابع :

ـ .. كيف تكتشف هذه الحقيقة المريعة على أى امرأة ، وتقبل بعدها بأن تتم هذه المؤامرة التى تموت فيها امرأة غيرها ، بينما تعمل هى لخدمة مصالح (علاء) كما تدعين ؟!

اكتسبت نظراتها بعدًا عميقًا ، وهى تقول :

ـ ومن قال إنها قبلت ؟!

يا للحيرة والتعقيد !

أضافت (صفاء) :

ـ .. أنت تجهلين مدى قدرات هذا الوغد !

.. كأنها تضيف الكيروسين فوق نيران أفكارى المشتعلة ..

ـ آنسة (نسرين) ؟!

صوت الأم الطيبة عند باب الشرفة ..

ـ أجل ..

قالت المرأة التى لا تصلح إلا لأن تكون أمًا :

ـ هاتف لك !

بكل غباء الدنيا سألتها :

ـ لى أنا ؟!

قالت الأم :

ـ أجل ، شخص يقول إنه يريدك لأمر لا يحتمل التأجيل ..

من يمكن أن يتابع خطواتى بهذا الحرص غيره ؟!

رفعت سماعة الهاتف فى الصالة :

ـ آلو ..

ـ أنت جيدة حقًا يا صغيرتى ..

.. السيد (س) بالطبع !

ـ .. لا بأس بك أبدًا ..

وجدتنى أقول وأنا أراقب العيون الشاخصة نحوى فى تساؤل :

ـ لم أصل إلى شىء له قيمة بعد ..

الصوت الأجش والنبرة المنهمكة :

ـ تريدين شيئًا له قيمة إذن ؟!

سيمنحنى شيئًا إذن ، لأكن حريصة ومستعدة وأتحول على الفور إلى أذن تمسك بسماعة هاتف ..

هيا ، تحولى يا فتاة !

ـ ماذا هناك ؟!

قال :

ـ هناك امرأة أخرى !

ـ من ؟!

أسأل ، ويجيب :

ـ تقيم معك فى نفس الفندق ..

من يقصد ؟!

ـ من تقصد ؟!

ـ شعار السيد (س) الدائم : اعرف الحقيقة بنفسك !

لن يدلنى على شىء ما لم أسع وراءه ، هذا مفهوم بالطبع ..

ـ .. نلتقى هناك أيتها الصغيرة ، لا تتأخرى وإلا ...

ضحكة ساخرة ، ثم انقطاع الخط ..

ومساحات من أسئلة لا تنتهى إلا لتبدأ ، وإذا بدأت ..

فأين النهاية ؟!

★ ★ ★

٤ ـ امرأة أخرى !

الفندق من جديد ..

لطفاً (هشام) سيجارته فى المنفضة المستقرة على مكتب مدير الفندق ، ثم رفع ناظريه نحوى نافثًا الدخان اللعين الذى احتبس فى صدره طويلاً ..

كنت جالسة أمامه أنظر فى بعض الأوراق ، وأجاهد لكبح جماح انفعالاتى ..

قال (هشام) معتذرًا عن ذنب لم يرتكبه :

ـ معذرة يا سيدى على إزعاجنا لك ..

ابتسم المدير وقال فى أريحية مهنية :

ـ نحن فى خدمة العدالة دائمًا يا سيادة الرائد ..

ثم نظر إلىّ وقد تضخمت عيناى الناظرتان إلى الأوراق بين يدى :

ـ .. حتى ولو بصفة غير رسمية !

سقط رأس (هشام) بين كتفيه ، وقد فهم أن سبب اتصالى

به لم يكن إلا لمساعدتى فى فعل ما أعجز عن فعله بدونه .. فيم كانت خطبتى لضابط شرطة إذن ؟!

رفعت كرتى عينى أخيرًا إليهما ، وأنا أغمغم كالمختنقة :

ـ إنها هى ، مع تغيير طفيف فى شكل الأنف !

تناول (هشام) الأوراق من يدى ، ونظر إلى الصور الضوئية المأخوذة عن أوراق هوية ذات حروف لاتينية ، وانعقد حاجباه مغمغمًا بدوره :

ـ لم أرَها حتى الآن ، لكن ..

هذه فائدة ذهابى إلى قصر أسرتها تحت شمس القيلولة ، ورؤيتى لصورتها مع ابنها الذى يحبها كثيرًا !

ـ .. هذه الأوراق ليست بالإنجليزية !

قالها (هشام) متذاكيًا فهززت رأسى ، وكذلك فعل مدير الفندق الذى أدلى بدلوه قائلاً :

ـ بالفعل يا سيادة الرائد ، إنها بالإيطالية ..

انعقد الحاجبان أكثر ، و(هشام) يسأل بمزيج من الدهشة والاستنكار :

ـ الإيطالية ؟! لكن ..

لم يمنحه المدير فرصة المتابعة ، إذ قال متناولا الأوراق منه فى هدوء :

ـ الاسم (ألفونسا أليجرى) ، ٤٧ عامًا ، محل الإقامة : (ميلانو) ، تعمل كمراسلة حرة لعدد من الصحف والمجلات المحلية الإيطالية ..

وقلب الأوراق ناظرًا فيها من خلف عوينات قراءة :

ـ .. هذه صورة ضوئية من جواز سفرها الإيطالى ، وهذه صورة من بطاقة هويتها ، ورخصة قيادة السيارات ، وبطاقة العمل الصحفى ، و ...

غمغم (هشام) متحاشيًا النظر نحوى :

ـ ربما ليست هى !

هتفتُ فى إصرار :

ـ بل هى ، لقد رأيت صورتها القديمة بنفسى هذا الصباح ..

نظر إلينا المدير فى غير فهم وهو يتساءل :

ـ عمن تتحدثان ؟!

تجاهلت سؤاله ، ووجهت إليه سؤالاً :

ـ منذ متى تقيم هذه المرأة فى الفندق يا سيدى ؟!

أجابنى المدير ، بعد أن تحول إلى جهاز حاسبه الآلى ، وضغط بعضًا من أزراره :

ـ منذ .. أسبوع تقريبًا ، جاءت فى سياحة إلى (الإسكندرية) فوق متن باخرة مجولة فى أنحاء البحر المتوسط ، وقد أبحرت الباخرة بدونها بعد تفضيلها أن تقضى فى بلادنا مزيدًا من الوقت !

وجدتنى أسأل :

ـ هل زارها أحد ؟!

قال ما لم يشفِ غليلى :

ـ ربما ، نحن لا نسجل مثل هذه الأمور !

سألت مرة أخرى :

ـ ماذا عن المكالمات الهاتفية الصادرة والواردة ؟!

قال ما لم يشفِ غليلى مرة أخرى :

ـ هذه يمكننا الكشف عنها فى فاتورة إقامتها ، لكننا سنستغرق بعض الوقت ..

هنا تدخل (هشام) بسؤال :

ـ متى اختفت يا سيدى ؟!

لم يتعجب الرجل من معرفتنا باختفائها ، إذ هذا سبب معقول لسؤالنا عنها ، فأجاب بآلية :

ـ لقد دفعت تكاليف حجز الغرفة مقدمًا لمدة أسبوع عن طريق بطاقة الائتمان ، ومنذ ثلاثة أيام بالتحديد غادرت الفندق ولم تعد ..

ألقيت بسؤال سخيف :

ـ وكم يومًا قضتها فى الفندق من هذا الأسبوع ؟!

ـ هذا الأسبوع ينتهى غدًا ، وبعملية حسابية بسيطة ..

كم أمقت الرياضيات !

ـ .. فقد أقامت هنا لمدة ثلاثة أيام فقط ..

تبادلت مع (هشام) نظرة تلغرافية خاطفة ، مط شفتيه بعدها ثم التفت إلى المدير قائلاً :

ـ نريد أن نفحص غرفتها إن أذنت لنا يا سيدى ..

خلع الرجل عويناته ، وقال راسمًا فوق شفتيه بسمته الأريحية المهنية إياها :

ـ بالطبع ، على الرحب والسعة يا سيادة الرائد ..

ونهض دون أن ينسى مضايقة (هشام) فى براءة :

ـ نحن فى خدمة العدالة دائمًا ، حتى ولو بصفة غير رسمية !

* * *

غرفة (دعاء شريف) أو (ألفونسا أليجرى) تعلو غرفتى مباشرة ، ورب صدفة خير من ألف موعد !

قال لى (هشام) ونحن ندلف إلى الغرفة :

ـ حذار من لمس أى شىء ستحتاج المباحث لرفع البصمات لمطابقتها ببصمات المتوفاة ..

كان (هشام) قد تحدث إلى صديقه الشرطى الذى سيحضر بين لحظة وأخرى على رأس قوة لمعاينة المكان ، ويجب عندما يحضر أن يجد الغرفة موصدة كأن أحدًا لم يدخلها ، وإلا تعرض (هشام) للمساءلة ، وتعرضت أنا لمخاطر غضبته العنيفة ..

أومأت له برأسى ، وكنت أنوى ألا ألتزم بتحذيره حرفيًا ، برغم علمى بأنه سيتابعنى بعينيه كالحارس الأمين ..

الغرفة عادية لا تشى بغير المألوف ، مرتبة ومنسقة

شهادة على جودة خدمة الغرف هنا ، هناك حقيبة واحدة صغيرة مرتكنة على الجدار سيقتلنى (هشام) لو لمستها ، وهناك أيضًا مظروف ورقى مغلق على الخوان المجاور السرير ، بجانب الهاتف ومصباح الإنارة الشاحبة ..

تقدمت من المظروف فى حرص راجية ألا يكون (هشام) قد رآه ، وألا يكون قد رآنى إذ أدسه فى جيب قميصى الواسع ، ولحسن الحظ فقد انشغل هو ومدير الفندق - الذى صاحبنا فى رحلة استكشاف الغرفة لأول مرة - بالموظف النحيل الذى اقترب منهما حاملاً بعض الوريقات ..

- هذا كشف المكالمات الهاتفية إذن ..

قالها (هشام) وهو ينظر إلى الأرقام المجردة فى غباء ، وقال المدير هازًا كتفيه :

- يمكنك الاحتفاظ بهذه النسخة ، وسنقدم نحن واحدة أخرى فى أثناء التحقيق بصورة رسمية !

هذا الرجل متعاون أكثر من اللازم !

التفت إليهما وأنا أقول :

- سأحتفظ بها أنا ..

شعرت بأن (هشام) سينفجر بى آمرًا بالكف عن التصرف بهذه الطريقة الجنونية ، لكنه كان يحبنى حقًا فآثر الصمت على ما يبدو ، وابتلع لسانه !

* * *

على مائدة العشاء التى جمعتنى بأبى و(هشام) فى مطعم الفندق ، كنت منهمكة فى مقارنة أرقام الهاتف التى أجرتها (ألفونسا أليجرى) بأرقام الهواتف الخاصة بعالم (دعاء شريف) القديم ، التى انتزعتها من دليل هواتف الفندق دون أن يلاحظ أحد !

كان الرجلان يتحدثان فى أمور ما لا تخترق مسامعى ، عندما اكتشفت المفاجأة ..

هناك رقم مطابق !

لقد أجرت (ألفونسا) مكالمة واحدة إلى منزل (الأنفوشى) القديم الخاص بأسرتها ، مكالمة قصيرة للغاية تقل مدتها عن الدقيقة الواحدة ، يطابق رقمها رقم هاتف المنزل !

مفاجأة مذهلة قد تفسر الكثير ، لكن ..

ما زالت هناك قطع كثيرة ناقصة فى لعبة (البازل) المحيرة هذه ..

ـ كيف يمكن أن تتبدل شخصية الإنسان دون إرادة منه ؟!

ألقيت بالسؤال على حين غرة ، فانقطع حبل الحوار الممتد بين أبى وخطيبى ، وحدجاتى بالنظرات الطافحة بالحيرة وبعلامات الاستفهام والتعجب ..

ـ ماذا تعنين ؟!

سألنى أبى ، فقصرت وأنا أعدو فى مارثون أفكارى اللاهث :

ـ أعنى أن أصحو من نومى وقد فقدت من ذاكراتى كل ما أعرفه عن شخصيتى السابقة ، وأجد نفسى إنسانة فى حياة أخرى ومجتمع آخر ..

كان (هشام) يعرف مغزى قولى فلاذ بالصمت والطعام ، أما أبى فقد ترك ملعقته داخل علبة الزبادى بالفواكه ليقول :

ـ أعتقد أنك تتحدثين عن الاضطرابات التفككية أو الهستيرية فى علم الأمراض النفسية ، أو ما نسميه باللاتينية الـ Dissociative Disorders ..

قلتُ فى محاولة لتقريب الصورة التى أريدها إلى مخيلته :

ـ أتحدث عن كيفية امحاء شخصية إنسان ، وزرع شخصية أخرى مكانها !

قال هازًا رأسه وقد وضحت أمامه الصورة إلى حد بعيد :

ـ هو ما أتحدث عنه أيضًا ، الاضطرابات التفككية التى تتضمن فقدان الذاكرة والتشرد واضطراب الهوية وفقدان الأنية !

مصطلحات غريبة ، لكنه تطوع بشرحها عامدًا إلى التبسيط قدر استطاعته :

ـ .. فقدان الذاكرة التفككى أو الـ Dissociative amnesia هو فقدان الذاكرة القدرة على استدعاء الخبرات الماضية أو المعلومات الشخصية ، وينشأ عادة من المعاناة الشديدة كمحاولات الانتحار أو الحوادث على اختلافها ، ويظهر على هيئة فجوات فى تاريخ المريض لا يستطيع تذكر ما حدث بها ، هذا هو أبسط الأنواع ..

ليس هذا بالتأكيد ما أريده ..

ـ .. التشرد أو التجوال التفككى ، الـ Dissociative Fugue .. وهو الاختفاء المفاجئ وسفر المريض من منزله أو مكان إقامته مع فقدان شامل للذاكرة ، وغياب الإحساس بالهوية أو الذات كليًا ، وفى الغالب يتخذ المرء هوية جديدة وعملاً جديدًا بل ومحل إقامة جديدًا له أيضًا ، ومع انتهاء الحالة ينسى المرء ما حدث له فى أثناء هذا التشرد !

نعم ، ربما كان هذا بالفعل ، أو ..

ـ .. لدينا أيضًا اضطراب الهوية التفككى أو الـ Dissociative Identity Disorder الذى كنا نعرفه من قبل باضطراب تعدد الشخصية ، وهو اضطراب مخالف للفصام أو الشيزوفرينا التى هى مرض نفسى له علامات أخرى مختلفة .. فى هذا الاضطراب يعيش المريض شخصيتين أو أكثر ، كل شخصية لها خصائصها وسماتها المتميزة ، هذه الخصائص هى التى توجه سلوك كل شخصية .. ويكون الانتقال بين هذه الشخصيات مفاجئًا ، كما أن المريض ينسى فى شخصيته الحالية ما كان عليه فى شخصيته السابقة .. وربما تتغلب شخصية على الأخرى كما حدث مع الدكتور (جيكل) والمستر (هايد) اللذان ألهما الأدباء والفنانين على مر السنين ..

هذا أيضًا يمكن أن يكون ..

ـ .. لم يبق إلا اضطراب فقدان الأنية Depersonalization Disorder الذى يشعر فيه المريض بأنه على غير حقيقته ، أو أنه ليس هو ، أو أن بعضًا من أشكال سلوكه ليست صادرة عنه ، ويصنف كنوع من اغتراب الشخص عن ذاته ..

كلا ، أعتقد أن الأمر يمكن أن يكون ..

قلتُ على الفور :

ـ سأذهب فى مشوار وأعود سريعًا ..

ثم تركتهما ناهضة وطعامى أمامى كما هو ، وقبل أن أمضى بأحمالى الورقية هتفت بهما :

ـ .. لن أتأخر !

مضيت بينما كان (هشام) يشعل سيجارة ، وقد أنساه توتره أنه لا يفعل ذلك أمام أبى فى المعتاد من باب اللياقة ، وكان أبى يقول متابعًا غيابى خلف باب المطعم :

ـ فتاتى غريبة الأطوار اليوم ..

ونظر إلى (هشام) كأنه يستلهم من نظراته نجدة ما :

ـ .. وأسئلتها منذ الصباح غريبة أيضًا !

لكن نظرات (هشام) بدورها كانت تستلهم من عينى أبى نجدة ما !

* * *

فى سيارة الأجرة التى أقلتنى عبر طريق (الكورنيش) الطويل نحو حى (الأنفوشى) أخذت أعيد ترتيب أفكارى، وأحاول وضع سيناريو محتمل لما حدث ..

الاحتمال الأول: التشابه ..

يقول المثل الشعبى (يخلق من الأشباه أربعون)، الأمر لا يعدو - حسب هذا الاحتمال - أن يكون هناك تشابه بين (ألفونسا) و(دعاء) إلى حد مريب ..

الاحتمال الثانى: التواطؤ ..

اختفت (دعاء) منذ عشر سنوات لتنفذ مع زوجها مؤامرة، بأن تتخفى فى شخصية امرأة إيطالية لتعينه على الصعود إلى الثراء بوسائل غير مشروعة غالبًا ..

الاحتمال الثالث: الاستغلال ..

دبر (علاء مراد) الحادث القديم، ومحا ذاكرة زوجته ثم هيأ لها هوية جديدة، حتى قتلها بالفعل - بعد عشر سنوات كاملة - عندما حققت مآربه ولم يعد لوجودها من فائدة ..

الاحتمال الرابع: المرض النفسى ..

أصيبت (دعاء) بفقدان ذاكرة، وهاجرت إلى (إيطاليا)

- عبر سفينة ما فى الغالب - لتتخذ لها هناك هوية أخرى وتصنع لها تاريخا لم يكن، حتى بدأت تستعيد هويتها القديمة وأتت تبحث عنها فى (الإسكندرية)، لكن عودتها لم يكن مرغوبًا فيها على ما يبدو ..

أهذا كل شىء ؟!

لكل اقتراح وجاهته، لكنى أميل إلى الثالث بصفة شخصية، ربما نتيجة للقائى بـ (علاء) وتأكيد (صفاء) لشكوكى المعتادة ..

طرقت باب المنزل طويلاً هذه المرة، حتى فتحت لى (صفاء) فى النهاية بملابس منزلية وهيئة مشعثة، كأنى أيقظتها من النوم فى الحال ..

- آسفة إن كنت قد أيقظتك ..

قلتها فى ارتباك، فقالت (صفاء) بنبرة ثخينة بطيئة:

- لا عليك .. لم أكن نائمة ..

سألتها وأنا أشرئب ناظرة إلى صالة المنزل الهادئة من خلفها:

- أأنت وحدك أم ماذا ؟!

- أبى وأمى يتنزهان على الكورنيش، وأنا وحدى بالفعل ..

ثم أفسحتْ لى مجالاً للدخول داعية إياى إلى :

ـ .. تفضلى نسقيك شايًا !

قلتُ مختبئة خلف قناع التهذيب :

ـ أشكرك فالوقت متأخر نسبيًا ، لكنى أتيت لأطرح عليكِ سؤالا واحدًا ..

سألتنى بعينين رأيت فيها الاحمرار واضحًا :

ـ أى سؤال ؟!

ـ هل اتصلت بكِ (دعاء) منذ ثلاثة أيام ؟!

صمت ..

صمت طويل ..

صمت بالغ الطول ..

ثم أجابتنى فى النهاية :

ـ بالفعل ، اتصلت بى ..

ـ ولماذا لم تطلبى رؤيتها ؟!

ـ لم أطلب منها شيئًا ، كانت تصرخ وتستغيث !

قطبتْ سائلة :

ـ تستغيث ممن ؟!

ـ من زوجها ، قالت إنه سيقتلها لأنها عادت إلى الحياة بعد كل هذه السنين ..

رباه ، هذا يؤكد الشكوك كلها ..

ـ عادت إلى الحياة ؟!

سألتُ (صفاء) فأجابت :

ـ وقالت أيضًا إنها نادمة على كل شىء ..

ـ ما معنى هذا ؟!

خواء فى عينى (صفاء) الحمراوين وهى تتابع دون أن تلقى لسؤالى بالا :

ـ ورجتنى ألا أفشى سر هذه المكالمة لأى مخلوق ..

عدت أسألها دون أن ألقى بالا لتجاهلها :

ـ لماذا ؟!

التمع الاحمرار فى عينى (صفاء) :

ـ .. لأن هذا سيجعل نهايتها أسرع !

★ ★ ★

لولو

٥ ـ تأكيدات معتادة ..

سألت أبى على مائدة الإفطار الصباحية :

ـ هل يمكن أن يمحو شخص ما ذاكرة إنسان آخر دون إرادته ؟!

توقف عن دهن قطعة الخبز بالمربى ، ونظر إلىّ قائلاً فى دعابة جادة :

ـ ما بال أسئلتك بهذه الغرابة منذ الأمس ؟!

قلت وأنا أبتسم (تذكرت لحظتها أننى لم أبتسم منذ أكثر من يوم كامل !) :

ـ سأذكر اسمك فى تحقيقى القادم لو رافقنى الإجابة ..

كأنه يحتاج إلى شهرة تمنحها له ابنته المغمورة !

ـ يؤسفنى أن أخيب ظنك ، لكن الإجابة لن تروقك بالتأكيد ..

قالها وعاد يدهن الخبز بالمربى متابعًا :

ـ .. لاتوجد وسيلة معروفة لهذا حتى الآن إلا فى روايات الخيال العلمى ..

سألته بعد أن أخذت رشفة من (النسكافيه) :

ـ ماذا عن التنويم المغناطيسى ؟!

ابتسم وقال :

ـ فى الحقل الطبى نستخدم التنويم المغناطيسى لعلاج فقدان الذاكرة ، لا العكس !

ثم أضاف وبسمته تتمدد :

ـ .. لكنى أفهم إلام ترمين تقريبًا .. هل يمكن أن يؤمر إنسان واقع تحت التنويم بأن ينسى ماضيه وأن يدخل فى هوية إنسان آخر ؟!

قلتُ فى سرعة لم تبلغ حد اللهفة :

ـ تمامًا ، هذا ما أعنيه بالتحديد ..

ـ للأسف الإجابة ستكون مخيبة لآمالك مرة أخرى .. إن أهم شروط التنويم المغناطيسى الناجح أن يكون للمنوَّم رغبة فى التنويم ، وأن يكون مؤمنًا بأنه سينام ، ويجب أن يكون مسترخيًا ومسترخيًا فى أثناء التنويم ، وهو ما ينفى صفة اللاإرادية التى ذيلتِ بها سؤالك ..

والتقط أنفاسه ثم أكمل :

ـ .. ومن المعروف أنه لا يمكن إجبار شخص ما على فعل ما لا يرتضيه وما يتنافى مع عاداته وعقائده ومسلماته تحت سيطرة المنوِّم ، دعك من الدوائر المفرغة المرسومة فى عيون أبطال قصص (ميكى) و(بطوط) المصورة عندما ينوِّمون مغناطيسيًا ..

دوائر مفرغة .. يبدو هذا مألوفًا بعض الشىء !

ـ هذا مخيب للآمال فعلاً !

قلتها ممتعضة ، فقال مداعبًا :

ـ أن أفقد فرصتى للظهور فى تحقيقك أفضل من أن أعطيك معلومات مضللة !

امتصنى تفكير آخر ..

مازال اليوم فى أوله ، فمن أين يمكننى أن أبدأ ؟!

* * *

فى بهو الفندق كانت الأفكار تروح فى عقلى وتجىء ، وتتصادم ..

اليوم هو آخر أيام المؤتمر ، سيلقى أبى محاضرة أخرى ، (هشام) ينهى مأموريته اليوم ، سنعود إلى (القاهرة) قبل

أن يُحل اللغز ، ربما تركتهما يعودان وظللت أنا يومًا آخر أو يومين ، لكن من سيترك لى حرية فعل هذا ؟! هل يُحل اللغز اليوم ؟! رجال الشرطة والنيابة عاينوا غرفة (ألفونسا) ، نتيجة مضاهاة البصمات تستغرق وقتًا ، يجب أن أكون بين حضور أبى اليوم تكفيرًا عن تصرفى غير اللائق معه ؛ عندما تركت المحاضرة السابقة فى منتصفها ، هل لاحظ ذلك برغم الظلام ؟! ، لا أظن ..

مجددًا من أين يمكننى أن أبدأ ؟!

ربما يحسن البدء بـ (علاء) المتجمد ، إذ ربما ينصهر معترفًا عندما أواجهه بمعلوماتى الجديدة ، وربما ..

ثم رأيته واقفًا هناك ، كأنه كان يقرأ افكارى ..

(علاء مراد) يرتدى ملابسه الكلاسيكية البسيطة ، وسط لفيف من الرجال ضخام الحجم يرتدون حللا فخمة وساعات ذهبية براقة ، يقفون جميعًا فى ركن قصى من البهو منخرطين فى حديث هامس متجهم ..

ما الذى أتى به هذا الـ ... ؟!

ـ من هؤلاء ؟!

همستُ أسأل موظفة الاستقبال السعيدة بنفسها ، فنظرتُ نحو الجمع الذى أومأتُ إليه بإشارة خفية متحاشية النظر قدر استطاعتى ، حتى لا يرانى (علاء) فيتعرفنى ..

ـ إنهم مجموعة من المستثمرين المصريين ..

أيتها الذكية !

ـ أعلم ولكن ، لماذا هم هنا ؟!

سعدت بنفسها أكثر وهى تجيبنى :

ـ يعاينون الفندق قبل شرائه ..

قطبتُ سائلة من جديد :

ـ ولماذا ؟!

ـ الديون تراكمت على مالكه الأصلى ، وهو معروض للبيع بعدة ملايين ..

همستُ مفكرة بصوت مسموع :

ـ لماذا يشترى (علاء مراد) فندقًا كهذا ؟!

هزت الموظفة كتفيها وقالت مقتحمة أفكارى :

ـ لأنه يملك السيولة ، وهو يرى فى هذا المشروع نجاحًا برغم احتجاج شركائه المتحلقين هناك من حوله ..

قلتُ مغالبة دهشتى :

ـ هل تعرفين (علاء مراد) ؟!

قالتْ مغالبة دهشتها :

ـ وهل هناك من يجهل (علاء مراد) فى (الإسكندرية) كلها ؟!

ثم إنها استطردتْ :

ـ .. إنه رجل الصناعة الأول فى المحافظة ، يمتلك عدة مصانع للمنتجات البلاستيكية هنا وفى الخارج ، بالإضافة إلى أعماله فى الاستيراد والتصدير والمقاولات ..

هكذا يغسل أمواله إذن ..

تابعت الموظفة :

ـ .. تصورى إنه عصامى منة بالمنة ، وأنه قد بنى نفسه من الصفر إذ كان يسكن فى شقة متواضعة بـ (سيدى بشر) ، وكان يعمل عضوًا بهيئة تدريس كلية ..

قاطعتُها :

ـ أعلم ..

وغبت عن نظراتها المندهشة فى الحال ، وقد اهتديت إلى نقطة تناسب بداية بحثى ..

* * *

أمضيت النهار بطوله فى سراى النيابة ، فقط لأهتدى إلى عنوان شقة (سيدى بشر) القديمة من واقع التحقيق الذى تم منذ عشر سنوات إبان احتراقها و(دعاء شريف) ..

ركبت الترام القديم الذى يخترق أحشاء المدينة النائمة على شاطئ الغروب الأبدى ؛ متجهة إلى هناك ، ومع الاهتزازات المنتظمة شعرت بالجوع يقرص أمعائى ، وتذكرت أنى لم آكل شيئًا منذ وجبة الإفطار الصباحية مع أبى ..

ليس هذا وقت الجوع ، وليس وقت أى شىء آخر !

دون مشقة وجدت نفسى أمام البناية القديمة ، ودون تردد اتجهت نحو البواب الجالس أمامها على أريكة خشبية متهالكة ، مفروش فوقها كليم ملون ..

ألقيت التحية فى ود :

ـ مساء الخير ..

قرقر الماء فى البرطمان الذى يمتد خارجه عود من البوص ، ليستقر طرفه الآخر فى فم البواب الأسمر بلون النوبة ولون مربيتى دادة (رنيفة) ـ رحمها الله ..

قال البواب يبادلنى الود بأفضل منه :

ـ مساء النور ، تفضلى ..

الود يسهل الكثير من مهامى ، والابتسامة فوق شفتى كفيلة بتذليل الكثير من الصعاب :

ـ أشكرك ياحاج ، كنت فقط أريد أن أسألك عن شىء ما ..

الشعر الأشيب المتنافر مع اسمرار بشرته يبعث فى نفسى بعض التفاؤل ..

ـ تفضلى ، مرينى ..

ثم رفع عقيرته بالنداء :

ـ .. شاى هنا للأستاذة يا (فايقة) ..

ـ حاضر يا (سلماوى) ..

(فايقة) شابة صغيرة يقل عمرها بعقدين تقريبًا عن (سلماوى) !

- لا لزوم لذلك أبدًا يا عم (سلماوى) ، أريد أن أسألك فقط عن شيء قديم بعض الشيء ..

نظر نحوى بعينيه الضيقتين ، وقال بعد أن قرقر الماء وتصاعدت رائحة المعسل :

- بخصوص ماذا ؟!

نظرتُ إلى البناية الواطئة ، وقلتُ :

- بخصوص شيء حدث فى هذا المبنى منذ أعوام طويلة ..

قال فى حماسة :

- سلى ما شئتِ ، إننى أحرس هذا المبنى منذ أكثر من عشرين عامًا ، وأذكر كل ساكن أتى إلى هنا منذ جئت ..

كل هذا يبعث على التفاؤل ، ويشعرنى بأن جهدى لم يذهب سدى ..

إنى أقترب ، أقترب فى اطراد ..

- هل تذكر حريقًا شب فى إحدى الشقق منذ عشر سنوات تقريبًا ؟!

صمت ، توقفت الجوزة عن القرقرة وتجمدت رائحة المعسل فى الهواء ، وضاقت عينا العم (سلماوى) أكثر ..

يتذكر أو لا يتذكر ، هو وحده أعلم !

- .. كان هذا منذ وقت طويل ..

قلتها مجاهدة خيبة الأمل ، فلم يجبنى إلا الصمت حتى غلبتنى خيبة الأمل فى النهاية ..

كدت أذهب عائدة أدراجى ، لكن (سلماوى) غمغم بغتة :

- حادث لا يُنسى ..

سألته متشبثة بحبال كلماته التى لم يقلها :

- هل كنت هنا ساعتها ؟!

- الحريق الذى شب فى شقة (علاء) بك ، واحترقت فيه زوجته ..

- (دعاء) ، (دعاء شريف) ..

- للأسف ، لم أكن هنا .. كنت أقضى بعض حاجيات السكان ..

خيبة الأمل من جديد ، قبل أن يتابع :

- .. لكن (عطيات) كانت هنا ..

وبارقة أمل أخيرة جعلتنى أسأله فى شغف :

- (عطيات) ؟!

ـ زوجتى الأولى ، وأم العيال ..

أتت (فايقة) ـ زوجته الثانية الشابة ـ حاملة كوبين صغيرين من الشاى الأسود ، وضعتهما ومضت إلى غرفتها الصغيرة فى بئر السلم دون أن تنطق بحرف ..

سألته متجاهلة الشاى والزجاج غير النظيف الذى يحويه :

ـ وهل رأت هى شيئًا غريبًا مازلت تذكره ؟!

ـ عدتُ يومها ولم أجدها ..

غريبة !

سألته :

ـ أين كانت هى الأخرى ؟!

نظر نحوى ، وتلاشت عيناه فى الضيق وهو يجيب :

ـ هذا ما لا أعرفه حتى الآن ..

غباء !

سألته :

ـ ما معنى هذا ؟!

أجابنى :

ـ انتظرتها طويلاً ، مضت الأيام والشهور والسنون حتى اليوم دون أن تظهر ، لهذا تزوجت بأخرى تخدمنى فى أيامى الأخيرة هذه ..

لحظة ، أيمكن أن ؟!

سألته :

ـ عم (سلماوى) ، هل كانت زوجتك الأولى معتادة على الخدمة فى بيوت البناية ؟!

أجابنى :

ـ زوجة البواب دائمًا تفعل ..

هذا يفسر الكثير ..

ـ أشكرك يا عم (سلماوى) ..

ومضيت أهرول ، لابد أن أتصل بـ (هشام) وأخبره بكل ما ..

ـ يا أستاذة ..

التفتُ إلى نداء الرجل العجوز ، ورأيته يلوح بورقة ما ..

ـ ماذ هناك ؟!

ـ سقطت منكِ هذه ..

أى ورقة هذه ؟! إن جيبى ملىء بالأوراق ..

عدت ونظرت لأجدها إحدى الصفحات التى اقتبستها من دليل الهواتف ..

ـ شكرًا يا عم (سلماوى) ..

حياتى الرجل بكفه وعاد إلى الجوزة والقرقرة وسحابات المصل الخفيفة ، وكدت أعيد الورقة إلى جيبى عندما لفت نظرى شىء غريب فيها على أضواء الغروب الشاحبة ..

دققت فى الورقة ، ورأيت خطًا مرسومًا باللون الأحمر حول عنوان قصر (علاء مراد) الكائن بـ (العجمى) ، والذى زرته ظهيرة أمس ..

أنا لم أرسم هذا الخط ، ولم أضع حرف الـ (س) بنفس اللون أسفله !

إنه هو إذن ، السيد (س) ..

كيف ومتى وأين أخذ الورقة من جيبى وأعادها إليه مرة أخرى ، بعد أن وضع الخط والرمز ؟!

أسئلة لم تعد تثيرنى بقدر ما يثيرنى مغزى هذا ..

إنه يعنى من هذا شيئًا ما ، فى الغالب يريد منى أن أذهب إلى هناك ..

أخرجت كل ما فى جيوبى من أوراق بحثًا عن خطوط أو رموز أخرى ، لكنى وجدت بقية الأوراق سليمة ، فيما عدا وريقة واحدة لم تكن بين أوراقى أصلاً ..

قصاصة بيضاء مدون فوقها بنفس اللون الأحمر ، وبخط سيئ كأنه كتب بيد مريض بالشلل الرعاش :

الصياد فريسة ، والفريسة صياد !

س

أسئلة وأسئلة ، والإجابات لن أجدها إلا هناك ..

إلى هناك إذن !

★ ★ ★

أنزلنى باص (المشروع) الصغير عند بداية (العجمى) ، وأوصلتنى سيارة أجرة مطلية بالأصفر والأسود أمام قصر (علاء مراد) فى شاطئ (الزهراء) ..

نقدت السائق أجره فابتعد بسيارته ، تحت ضوء قمر الليل المكتمل تقريبًا ..

تسللت فى هدوء إلى البوابة المعدنية .. كانت موصدة فى إحكام ولم تكن فكرة ضغط الجرس للإعلان عن قدومى وجيهة إلى أى حد ..

يجب أن أتسلل إلى الداخل دون أن يشعر بى أحد .. لكن ، كيف ؟!

ليس هناك حراس ، هذا صحيح ..

ليس هناك مارة متطفلون ، هذا صحيح أيضًا ..

لكن هناك بوابة مرتفعة وأسوار شاهقة الارتفاع أعجز عن تخيلى أتسلقها ، ولست (لارا كروفت) حتى أخرج حبلا ينتهى بخطاف معدنى من حقيبة فوق ظهرى ، فألقيه إلى القمة وأتسلقها بخفة ثم أطلق النيران على رأسى فى النهاية بطريق الخطأ !

درت حول السور ، وعند نقطة ما خلف شجرة نحيفة كان الحبل ينتظرنى ، موصلا بخطاف معلق عند القمة العالية ..

حبل حقيقى وخطاف حقيقى !!

من وضعهما وجهزهما لى بهذا الشكل ؟!

إنه الموقّع على الجدار - إلى جوار الحبل المتدلى - بحرف الـ (س) بكل تأكيد ، مستخدمًا قطعة من الطبشور الأحمر ..

فركت كفى ، وأمسكت بالحبل ، وجاهدت للصعود ..

سقطت مرتين فاتسخت ملابسى ، وأنّت عضلاتى وعظامى ، لكنى سموت فوق آلامى وواصلت طريقى نحو القمة ..

جيد .. إننى أستطيع السمو فوق أشياء أخرى غير مستويات المواقف فى بعض الأحيان ..

قدمى على الجدار ، كفاى تشققتا وهما تمسكان بالحبل ، صفا أسنانى يتعانقان حتى التحطم ، وفى النهاية أصل إلى القمة بأعجوبة ..

جلست فوق حافة السور العالية ألهث ، وأهنئ نفسى باجتياز اختبار الصاعقة الأول ..

نظرت إلى القصر الساكن ، الغارق فى الظلام إلا من نافذة سفلية مضاءة ..

الحديقة الأسطورية نائمة فى أحضان الظلام ، والسيارة

الفارهة تنظر إلىّ بعيونها المستديرة كأنها تتمنى التحدث وإفشاء سرى ..

كل شىء يبعث على الرعب لكنى لن أتراجع بعد أن وصلت إلى هذا الحد ..

لن أتراجع أبدًا ..

قفزت إلى الحديقة وتكومت فوق الحشائش الخضراء كجثة ، أنت كل خلية تحس فى جسدى ، وعدت ألهث كجرو عطشان ..

عطشانة بالفعل ، اتجهت إلى النافورة فى صدر الحديقة ورويت عطشى ، وبالمرة غسلت وجهى ليوحل التراب بالماء ..

لابد أن منظرى مريع الآن ..

الآن حيث يبدأ الخطر الحقيقى ..

تسللت على أطراف أصابعى ـ كأن أحدًا سيسمعنى ـ إلى حيث النافذة الوحيدة المضاءة ، المصنوعة من الزجاج المعشق فى تشكيل فنى جميل ، ومن خلال قطعة زجاج شفافة استطعت أن ألمح شيئًا مما يحدث فى الداخل ..

رباه ..

إن الشكوك تتأكد الآن بما لا يدع مجالاً إلا لليقين ..

هاهى ذى (صفاء شريف) مقيدة إلى مقعد فى منتصف حجرة شبه خالية ، وأمامها زوج شقيقتها الراحلة (علاء مراد) بملامح مكفهرة ، يتأكد من أنه قد أحكم وثاقها جيدًا ..

وهناك شىء ما أسفل المقعد ..

شىء يشبه أداة معدنية ذات يد طويلة ، تنتهى بدائرة مفرغة متوسطة الطول ..

رباه ، هذه أداة صنع وشم ، وشم الدائرة المفرغة الذى وجد على ذراع (دعاء) الأيسر ، أو ذراع (ألفونسا) الأيسر !

إنه فى حوزة (علاء) إذن ، هذا دليل إدانته الذى لا يقبل الشك ، بالإضافة لخطف (صفاء) واحتجازها بهذه الطريقة ..

قال (علاء) شيئًا لـ (صفاء) لم أستطع سماعه ، قاله بمنتهى العنف ثم تركها وحيدة بعد أن أغلق الباب خلفه ..

إنه يعد لها مصيرًا مشابهًا لمصير شقيقتها إذن ..

هوية أخرى ، و ...

كيف يفعلها ؟!

هل هناك علاقة للوشم بهذا ؟!

حاولت (صفاء) التملص من قيودها بلا فائدة ، أتعبتها المحاولات وكان لابد أن أتدخل من أجل إنقاذها ..

ليس إلا حل واحد ..

مؤلم قليلاً لكن ..

ما باليد حيلة !

انهلتُ بكوعى على نافذة الزجاج الملون ، فتحطم التشكيل الجميل ، وأغرقت الدماء يدى وذراعى ، بينما رفعت (صفاء) نحوى عينيها هاتفة فى لهفة :

ـ أنتِ ؟!

عبرت النافذة فى خفة برغم تمزق جسمى ، وأنا أقول :

ـ أجل أنا ، لحسن حظكِ ..

هتفتْ (صفاء) بى :

ـ أنجدينى ، فكى وثاقى .. إنه يريد أن يقتلنى ، أن ..

اتجهتُ نحوها فى سرعة وبدأت أحل عقدة الحبل بالفعل ، وقاطعتها :

ـ سأفعل ، وسينال جزاءه ..

ساعدتنى عندما ارتخى الحبل حولها قليلاً لتفك باقى وثاقها ، وعندما انحنيت أنا ممسكة بالأداة المعدنية الغريبة أتفحصها كانت هى قد نهضت واقفة ، وهرعتْ إلى نهاية

الحجرة فى نفس اللحظة التى عاد فيها (علاء) إلى الحجرة ، رامقًا إياى بنظرة من لهب ..

ـ إنه أنتِ مرة أخرى ..

قالها فى غضب هادر ، وهتفت أنا به فى شجاعة :

ـ أجل ، جئت أكشف لعبتك القذرة أيها القاتل ..

لدهشتى هتف بى حانقًا :

ـ أيتها الغبية ..

وتعاظمت دهشتى عندما علت ضحكة (صفاء) من ركن الحجرة ..

وبلغت دهشتى ذروتها عندما نظرت نحوها فوجدتها تمسك بمسدس صغير تصوبه نحونا ، وهى تهتف :

ـ عذرًا يا عزيزتى ، لكن زوج شقيقتى الغالية محق تمامًا ..

ما هذا الذى يحدث ؟!

تابعت (صفاء) :

ـ .. أنتِ أغبى من رأيت فى حياتى كلها !

★ ★ ★

لولو

٦ ـ دائرة الأبد ..

منتهى الخلط والعبث اللامعقول ..

ـ ما الذى يحدث هاهنا ؟!

تساءلتُ وأنا أجاهد الصداع الناجم عن عدم إدراكى لما يجرى من حولى ، فأتانى الجواب من فم (علاء) ذى الوجه المسودّ :

ـ لقد فككتِ وثاقها ، وستقتلنا الآن بجنونها ..

صرختُ فيه (صفاء) كمجنونة بالفعل :

ـ اخرس ، أنت المجنون ..

سألتُ (علاء) وأنا لم أزل ذاهلة بعد :

ـ لماذا قمت بخطفها إذن ؟!

أجابنى وأسنانه تكاد تتحطم غيظًا :

ـ خطفها ؟! أهى قالت لك هذا ؟!

قالت (صفاء) مكشرة عن أنيابها ، وهى تنقل فوهة المسدس بينى وبينه :

ـ لم يخطفنى أحد ، أنا التى جئت إلى هنا بقدمى ..

اكتشفتُ أننى لا أزال أمسك بالأداة المعدنية الغريبة التى تلمع كالفضة ، فسألت شاعرة بمدى غبائى الذى يتجاوز ما قالاه بكثير :

ـ وهذه ؟! تخص من ؟!

قالت (صفاء) على الفور ، كأنها تريد حيازة الفخر لنفسها :

ـ لى ، دائرة الأبد هذه لى ..

وعاد (علاء) يضغط أسنانه وهو يقول :

ـ وقد أفسدت هذا الدليل الذى يحمل بصماتها بأصابعك ، أيتها الـ ..

قل ما بدا لك يا سيدى ، فأنا استحقه وزيادة !

ضحكتْ (صفاء) فى هيستيريا ، وقالت :

ـ كل شىء يسير بأفضل مما خططت له ..

غمغمتُ فى لهجة كسيفة :

ـ لست أفهم شيئًا ..

قال (علاء) وهو يعتصر قبضته فى قوة :

ـ جاءت لتستولى على (إيهاب) .. وحيدى !

هنا فقط استدرت إليها أقول فى اتهام :

ـ أنتِ إذن وراء كل ما حدث ..

أعرف ما تقولون ، يالى من غبية !

قالت (صفاء) ، والمسدس يتأرجح فى يدها ، وبسمة الظفر تعلو ملامحها المخبولة :

ـ لست أنا ، بل هم .. سادة الأبد ..

يصلح عنوانًا لرواية من (ملف المستقبل) !

هذا جنون لا ريب فيه ، جنون من النوع الثقيل ..

عدت أتساءل :

ـ سادة الماذا ؟!

لمعت عينا (صفاء) ، وبرزت أسنانها فى بشاعة إذ أجابتنى :

ـ منذ عشر سنوات نادى سادة الأبد شقيقتى ، فلم يكن بوسعها إلا أن تلبى ..

عدتُ أتساءل :

ـ من سادة الأبد هؤلاء ؟!

أجابتنى (صفاء) :

ـ ليس لى أن أتحدث عنهم أمام الغرباء ، هذا عهد يقطعه من يدخل الدائرة على نفسه ، عهد الكتمان حتى الموت ..

رفعتُ الأداة المعدنية التى تنتهى بالدائرة بيدى المضرجة بالدم ، وأنا أسألها فى محاولة لاستدراجها حتى أعرف كل شىء :

ـ ألم تقولى إن هذه هى دائرة الأبد ؟!

قالت وعيناها تضيقان فى شراسة :

ـ هذه هى الدائرة التى نعرف بها بعضنا ، نحن أبناء الدائرة الكبرى ..

ـ هراء ..

هتف بها (علاء) مستنكرًا ، ثم استطرد مفسرًا :

ـ .. منذ عشر سنوات ، عندما أصيبت (دعاء) بالأعراض النفسية إياها من هلاوس ونسيان وشرود مستمر ، أوهمتها أنتِ بهذا الأمر وحرضتها على الهرب ..

غمغمتُ فى ذهول :

ـ أكانت مريضة نفسيًا ؟!

أجابنى مستاءً حتى النخاع :

ـ كانت الأعراض تهاجمها بين الحين والآخر ، وكانت خاضعة للعلاج النفسى عند طبيب تربطنى به صداقة ، واتفقنا جميعًا على إخفاء الأمر حتى نحافظ على مظهرها أمام الناس ، وحتى لا ينعت أصدقاء (إيهاب) أمه بالجنون !

هتفت (صفاء) والمسدس يتأرجح فى يدها بسرعة أكبر :

ـ هذا ما تصورته أنت ، لم تتصور أبدًا أن سادة الأبد قد نادوها ـ كما نادونى قبلها بكثير ـ ولم يكن أمامها إلا الامتثال سمعًا وطاعة ..

وانكشف ذراعها الأيسر أسفل الثوب عن دائرة مفرغة ، ثم إنها استطردت :

ـ .. عندما جاءها النداء كانت حائرة مثلنا جميعًا فى البداية ، حتى المرة الأخيرة التى زرتها فيها ، فصنعتُ لها علامة على ذراعها الأيسر بهذه الأداة التى تمسكين بها ، وبعدها اختلقنا حكاية مصرعها هذه حتى يتسنى لها البدء

من جديد فى مكان آخر ، وكانت المحروقة فى الحقيقة هى زوجة البواب المسكينة التى ألبسناها خاتم الزواج حتى يختلط الأمر على الجميع بعد انفجار أنبوب الغاز ..

هتفتُ أخيرًا فى حنق :

ـ وما ذنب تلك المرأة البريئة ؟!

قالت (صفاء) فى بساطة :

ـ لكل عمل عظيم ضحاياه الأبرياء ..

سألها (علاء) مجاهدًا للسيطرة على نفسه :

ـ وأين اختفت (دعاء) طوال هذه المدة ؟!

فى بساطة قالت (صفاء) :

ـ حيث أراد لها سادة الكون أن تكون ..

أنا أعلم يا سيد (علاء) ، لكنى لن أعذبك بالحقيقة الآن !

سألها (علاء) ووجهه يحتقن بالدم الساخن :

ـ وقتلتها فى المرة الثانية بلا رحمة ..

قالت :

أرادت الخروج عن الدائرة ، وعما أراده لها السادة ..

صاح فيها (علاء) بكل ما فى قلبه من لوعة :

ـ اخرسى أيتها الحقيرة المجردة من الإنسانية ..

توتر المسدس الحائر فى يدها أكثر ، فقلتُ وقد بدأت فى إدراك الصورة الكلية :

ـ لقد حادثتك هاتفيًا ، وقالت إنها تنوى الرجوع إلى (علاء) .. أليس كذلك ؟!

ابتسمتْ (صفاء) فى وحشية وقالت :

ـ كأنك كنتِ معنا ، لكنى نصحتها بالصبر وبأن تقابلنى أولاً عند الشاطئ البعيد ، وهناك كتمتُ أنفاسها كما أمرنى السادة أن أفعل ، وألقيت بجثتها الهامدة فى الماء المالح ..

الجنون !

تابعت (صفاء) :

ـ .. والليلة أتانى النداء الجديد ، بأن ينضم إلينا ابنها .. لذا تسللت عبر حبل مُتنهٍ بخطاف من فوق السور ، ولكنى لم أجد الفتى فى غرفته ..

لم يكن السيد (س) هو من وضع الحبل إذن ، لقد اكتفى بمجرد التوقيع بجواره !

ملاحظة خارج حدود الوقت المناسب بالمرة !!

قال (علاء) وصدره يعلو ويهبط :

ـ لحسن الحظ لم يكن قد عاد من جولته على الشاطئ بعد ، واكتشفت أنا تسللك وأبلغت الشرطة لتلقى القبض عليك متلبسة بجرائمك القديمة والحديثة !

قهقهت (صفاء) فى عته وقالت :

ـ لقد أرسل لى السادة أغبى خلق الله طرًا حتى تساعدنى على استكمال مهمتى ..

اللعينة تقصدنى !

وتواصل :

ـ .. الآن ينتهى كل شىء ، تموتان بطلقتى رصاص ، ويعود الفتى فينضم إلى دائرة الأبد بعد خروج أمه العاصية منها ..

صاح فيها (علاء) وقد طاش صوابه ، وانقض عليها مهاجمًا ، فصحتُ :

ـ كلا ..

كانت (صفاء) توجه مسدسها نحوه، وكان هو يواصل انقضاضه، وحاولت أنا التحرك لمنع جريمة جديدة، لكن ..

انطفأ النور ..

تعثرت فى سيرى ..

سمعت رصاصة مدوية ..

سقطت فى قلب الظلام ..

ثم ..

سكن كل شىء !

* * *

شاطئ بحر بعيد ..

أمواج وصخور ..

ومدى يتلاشى فيه الأزرق فى الأزرق ..

أنا عروس البحر بذيل سمكى، وشعر أسود طويل مبتل ..

أمتطى فرس نهر ..

ألوح للسفائن المارة ..

وأعشق أميرًا وسيمًا طفولى الملامح ..

على الشاطئ البعيد يقف الرجل الذى تذوب ملامحه فى الظل ..

ـ أنت هناك ..

أرفع عقيرتى بالنداء ..

ـ .. ماذا تفعل عندك ؟!

الصوت أجش عميق :

ـ أقف على رمل الحقيقة ..

أصيح وأنا أضرب الماء بذراعىّ :

ـ اقترب قليلاً حتى أرى ملامحك ..

الصوت عميق أجش :

ـ لا أستطيع، فى الماء مماتى ..

أصيح فى نزق طفولى :

ـ آتى إليك أنا إذن ..

عميق صوته وأجش :

ـ على الأرض لا تعيشين ..

أفقد مرحى فجأة :

ـ لن أراك إذن ..

أجش صوته وعميق :

ـ فى حياة اللقاء موت أكيد ..

أبكى :

يا لك من قاسٍ ..

يبتعد ، دون أن تترك قدماه آثارًا على رمل الشاطئ :

ـ الواقع أقسى ..

ويثور البحر عاصفًا ..

ثم ..

★ ★ ★

النهاية المعتادة ، لكنها فى مستشفى آخر غير مستشفى أبى ..

ـ لقد فعلتها وعشتِ ثانية يا فتاتى ..

يقولها أبى باسمًا فى حنان ، جالسًا بجوارى على سرير المستشفى ..

سيقتلك جنونك هذا يومًا ما ..

يقولها (هشام) فى محبة خفية ، وهو يقف عند باب الغرفة بملابسه المدنية ..

وأقول :

ـ دعونى أخمن ما حدث ، قُبِل (علاء مراد) وتم إلقاء القبض على (صفاء شريف) بعد العثور على تسجيل لاعترافها مصحوبًا برسالة من السيد (س) ..

ابتسم (هشام) وقال :

ـ صحيح ، فيما عدا أن (علاء مراد) مازال حيًا يرزق ..

قلتُ وقد انتقلت إلىّ عدوى الابتسام :

ـ لقد أنقذه السيد (س) من رصاصة (صفاء) إذن ..

قال (هشام) :

ـ لم تطلق (صفاء) أى رصاصات ، الرصاصة أتت من مسدس مجهول واستقرت فى المسدس الذى تمسك به دون أن يخدش يديها حتى !

اتسعت ابتسامتى وترسخ يقينى :

ـ إنه السيد (س) بالتأكيد ..

هزّ (هشام) رأسه فى تسليم ، وقال :

ـ وبالنسبة للتسجيل فقد وصلنا صباح اليوم مع رسالة تقول (احترسوا من سادة الأبد) ، التوقيع (س) !

ترسخ يقينى واتسعت ابتسامتى :

ـ إنه يسخر من (صفاء) ..

هنا تدخل أبى بقوله :

ـ المسكينة تعانى من مجموعة لابأس بها من الاضطرابات النفسية ، هذا هو الشىء الوحيد الذى سيعفيها من المسئولية الجنائية ..

غمغم (هشام) :

ـ هناك أكثر من تقرير يؤيد هذا الأمر ..

تساءلتُ :

ـ وأين هى الآن ؟!

أجابنى (هشام) :

ـ تحت العلاج والملاحظة فى مصحة خاصة بالمرضى الخطرين على المجتمع ..

عدت أتساءل :

ـ و(علاء مراد) ؟!

أجابنى (هشام) :

ـ عاد لحياته الطبيعية ، وتبرع بجزء كبير من ثروته الضخمة لبناء مصحة خاصة بالمضطربين نفسيًا ينوى إطلاق اسم زوجته الراحلة عليها ..

ليس كل ثرى صنع ثروته عن طريق منحرف ، درس أتعلمه وأحفظه جيدًا من هذه القضية المحيرة ..

قال أبى :

ـ سننتظر تحقيقًا جديدًا فى عدد (الأربعاء) القادم ..

ابتسمتُ قائلة :

ـ بكل سرور ..

وطفحت نظراتى بالحب ..

وبالحماسة ..

* * *

ما حدث بسيط ، الشقيقتان مضطربتان نفسيًا ، وربما يعود هذا لعوامل جينية ما تعود لصلة القرابة بين الأب والأم (بالزواج الأقارب !) ، وقد تزامن اضطرابهما النفسى

بحيث تصورت (صفاء) أنها تساعد شقيقتها على تنفيذ مخطط كونى ما، فى حين كانت (دعاء) تعانى اضطراب التشرد الذى حدثنى عنه أبى ..

لقد نفذت الشقيقتان جريمتهما فى زوجة البواب (وربما تكون الصغرى قد فعلتها بمفردها) فى نفس اللحظة التى غادرت فيها الكبرى الدار ناسية كل شىء عن ماضيها، وبادئة حياة أخرى بهوية جديدة عبر البحر الذى عبرته مع سفينة إيطالية فى الغالب ..

هناك بدأت من جديد، وبعد عشر سنوات بدأت ذاكرتها تعود نسبيًا، لتتذكر أشياء عن أسرتها وزوجها وابنها، فعادت لتجرى اتصالاً مع (صفاء)، التى صور لها جنونها أن هذا خرق للمخطط الكونى الذى نفذتاه سابقًا، فقررت تنفيذه بطريقتها الخاصة ..

قتل شقيقتها ..

ثم، كان ما كان ..

* * *

ـ جميل يا (نسرين) ..

قالتها السيدة (ألفت) وقد فرغت من قراءة التحقيق،

وترددت لحظة قبل أن تؤشر عليه بالطبع، فرفعت بصرها نحوى وسألتنى:

ـ .. لكن، لماذا الرموز هذه المرة ؟! لماذا لا تستخدمين الأسماء والأماكن الحقيقية ؟!

قلتُ وأنا أعدل من وضع نظارتى فوق عينى العسليتين:

ـ أخلاقيات المهنة يا سيدتى .. هناك صبى مراهق لا يجب أن يعرف شيئًا عما حدث لوالدته فى المرحلة الراهنة على الأقل؛ حتى لا نعرض نفسيته لدمار ما ..

ابتسمتْ السيدة (ألفت)، وقالت واضعة التأشيرة بقلمها الأحمر على قمة التحقيق:

ـ هذا مقنع حقًا ..

ـ استأذنك إذن يا سيدتى ..

ـ تفضلى ..

نهضتُ، وقبل أن أبلغ الباب استدرت لأتنحنح وأقول:

ـ بالنسبة لعرض التعيين يا سيدتى، هل مازال ساريًا ؟!

نظرتْ إلىّ مستفهمة، فاعترانى حرج بالغ وأنا أتابع:

ـ .. أم أنه ؟!

هنا فقط أنقذتنى وابتسمت قائلة :

ـ تستطيعين الانتظام لدينا من الغد يا (نسرين) ..

كدت أنهال عليها تقبيلاً ، لكنى أحجمت ، واكتفيت بابتسامة امتنان لانهائى ، وبـ :

ـ أشكرك كثيرًا يا سيدة (ألفت) ..

هزت رأسها وعادت تنخرط فى مشاغلها ، فيما أردفتُ أنا :

ـ .. أشكرك أكثر مما يمكنك التصور !

.. وأغلقتُ باب مكتبها خلفى ..

★ ★ ★

قلتُ لـ (هشام) ونحن نتناول الكشرى فى أشهر محال وسط البلد :

ـ بعد ثلاثة أشهر يا (هشام) !

توقف عن الاغتراف بملعقته ، وسألنى فى استغراب :

ـ ما هذا الذى بعد ثلاثة أشهر ؟!

ابتسمتُ قائلة :

ـ سنحدد موعد زفافنا المبدئى بعد ثلاثة أشهر من الآن ..

نظر نحوى مضيقًا عينيه ، وسألنى مستيقنًا :

ـ هل أنت مريضة بالحمى ؟! أم لعنك فى غير وعيك ؟!

قلت ووجهى يتخضب بحمرة خجلى :

ـ لا تكن سخيفًا !

وضاقت عيناه أكثر ، فيما قلتُ وأنا أصب الماء فى كوبى :

ـ .. لا وقت للسخافة ، أو للراحة !

ولأول مرة منذ وقت طويل أرى وجهه يشرق بهذه الطريقة ..

★ ★ ★

مخرج

شاطئ (العجمى) وشمس القيلولة اللطيفة ..

انغرست قدما (إيهاب مراد) فى الرمال النظيفة الناعمة ، وجهاز مشغل الـ mp3 المعلق بحافة سرواله يغنى فى سماعة أذنه ..

(قولى أحبك كى تزيد وسامتى

فبغير حبك لا أكون جميلا ..) ..

يطير على أجنحة النغمات ، ويحلق فى سماء الحياة والبحر والسماء والعالم ..

القلب يخفق بالحب والأحلام ..

بحب الحب ذاته ..

أخرج صورة أمه من جيب سرواله ونظر لها ، لا يذكرها إذ ماتت وهو مازال ابن خمس سنين ، ذهبت بغير رجعة ..

لكم يفتقد لمسة يد الأم الحانية ..

لكم يفتقدها ..

فجأة ارتطمت كرة برأسه ، فتماسك بصعوبة حتى لا يقع ..

أطفأ مشغل الأغانى ، ونظر إلى الناحية التى أتت منها الكرة غاضبًا ، لكن غضبه تبخر فى لحظة واحدة ..

أو أقل ..

ـ آسفة .. لم أكن أقصد ..

فتاة فى قمة الجمال ، شعر أشقر طويل وعينان ملونتان حالمتان وملامح دقيقة تنطق بالرقة وبالعذوبة ، ترتدى سروالاً قصيرًا وتحيط خصرها بملاءة ملونة شفافة ، ومن خلفها طفل صغير تلاعبه ..

ولا يدرى لم شعر بأن الدنيا لحظتها أكثر بهجة ، وأنها قد اكتسبت ألوانًا لم تكن فيها ..

ـ لا عليكِ ..

أشارت الفتاة إلى الطفل الصغير الذى لم يره ـ إذ أخذته ملامحها تمامًا ـ وقالت :

ـ أخى هو الذى ألقاها .. اعذره ، فهو طفل صغير ..

ألقى نحوهما بالكرة وهو يهتف فى سعادة لا يدرى مصدرها :

ـ لا عليكِ ، لا عليكِ بالمرة ..

التقط الطفل الكرة وأخذ يعدو بعيدًا ، فاعتذرت هى بدلاً منه :

ـ آسفة مرة أخرى ..

وأسرعت تعدو خلف الطفل ، بينما تابعهما هو بعينين يغشاهما الوله ..

هذه الفتاة ستغيره تمامًا ، وستقلب حياته رأسًا على عقب ..

هكذا تيقن

حان الآن موعد السهد والسهر ومفاجأة القمر والنجوم ، وربما متابعتها ومعرفة موقع منزلها وكتابة خطابات غرامية لها ..

إنه الهيام ..

الهيام بكل ما فيها ..

الهيام بالشعر وبالعينين وبالملامح وبالصوت وبالروح ..

والهيام حتى بذلك الوشم على ذراعها الأيسر ، والذى يمثل دائرة مفرغة !

* * *

[تمت بحمد الله]

شخصية غامضة فى مغامرات وأجواء عجيبة

محمد سليمان عبد المالك

الموت مرة أخرى!

يقولون إن الموت يأتى مرة واحدة فقط ..

ويقولون إن الموت لا يأتى مرتين على الإطلاق ..

لكن اليوم موعدنا مع امرأة ماتت مرتين ..

كيف ؟

هذه أمور لا يمكن مناقشتها أبداً على الغلاف الخلفى ..!

مغامرات

الثمن فى مصر ٢٥٠ قرش
ومايعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة

العدد القادم
(الخط الأحمر)